

محمود إمام

حنين زائف

مستوحاة من أحداث واقعية

السراج
SERAJ



حنين زائف





18 ش العرب من شارع 77 المعادى ـ القاهرة
Mobile: 01143679371 ـ 01224068553
Facebook: Seraj for Publishing & Distribution ـ السـراج للنشـر والتـوزيـع
E ـ mail: seraj.books@gmail.com

حنين زائف

محمود إمام

رقم الإيداع : 2016/23353

الترقيم الدولي : 0 ـ 05 ـ 6578 ـ 977 ـ 978

الطبعة الأولى : 2016 م - 1437 هـ

الناشر: © السـراج للنشر والتوزيع
جمهورية مصر العربية ـ القاهرة

تصميم الغلاف: أسامة علام



حنين زائف

رواية

محمود إمام

السراج للنشر والتوزيع



شكرًا لأبى، الذى ورثت منه فن الإبداع.

شكرًا لأمى، وإخوتى.

أخى عمر، ويوسف (ستعلمان يومًا ما أنى أحبكما كثيرًا).

شكرًا جزيلًا لدار «السراج» العزيزة التي شاركتني الطموح والنجاح، والقائمين عليها، إسلام أبو الفتوح ومحمد الطيب.

شكرًا لحسام محمد على، صديقي العزيز.

محمد مجدى عبد الوهاب.

وأوجه شكرًا خاصًا جدًّا للفنانة الجميلة «الجدعة» (سيمون) وإلى العزيز محمد رؤوف غنيم،

وشكرًا لأستاذى العزيز خالد محمد مصطفى.

إيمان متولى السيد، رنا أشرف، لينا موسى خريشة.

فيبي فرج، مى على محمد، أمنية عبد الرازق، ولميس إبراهيم صبيح.



الساعة ٩:٢٠ م.

أجلس فى ذلك المحل التجاري، الذى يتنصف ميدان روض الفرج فى انتصار مبرح على الإيجار اللعين، الذى يلتهم الأموال دون مراعاة لمجهود من بداخله، مثلما يبتلعنى كابتلاع كوب كامل من الماء عنوة من النيل. ورغم ذلك الانتصار، في انتظار انتصار آخر مضاعف، أجلس منتظرًا دخول أحد الزبائن كي أتمم انتصاري، متى يأتى حقًّا؟! لست أدرى! ذلك هو الرزق الذى قسمه الله لى وحدى، فلا دخل لبنى آدم فيه مطلقًا! الرزق آتٍ آتٍ بموعد لا يعلمه إلا رب العباد، إلى أن أتت تلك الغريبة، مرتدية قميصًا أبيض اللون، أعلاه جاكت، مشابه كثيرًا للجاكت الرجالى، لولا أنه يختلف كثيرًا - بالطبع - فى الخامة أنتم تعلمون ذلك، مصحوبًا ببنطال جينز ملتصق على جلدها بكل قسوة، تتساءل بغرابة عندما تراها: كيف ارتدته! صاحبة عين عسلية متسعة، تتساقط حولها شعيراتها الناعمة، يبدو أنها خرجت للتو من الكوافير، فتشتم عن بعد رائحة حرق شعيرتها الممتزج برائحة عطرها. أنفها دقيقة، شفتاها مكتنزتان، يزينهما أحمر شفاه وردى اللون، يبدو أنه من النوع الثمين.

لولا أن يديها بدون خواتم لظننتها متزوجة، بعنقها الشامخ، الطويل، المهيب، المكتفي والواثق، لتثق أنها تنتمى لفصيلة أبراج العقرب النرجسية.

قالت بلا مبالاة وهى تمسك بتحفة منزلية:

ـ هى بكام التحفة دى؟

تعيد قولها بلكنة متسائلة:

ـ يا أستاذ بكام دى؟

يبدو أن حبيبتى السابقة التى تنتمى لطائفة أبراج العقرب هى الأخرى قد أرسلتها! وإلا لِمَ كانت تنظر إلىَّ بكل اهتمام شديد ومريب؟! التفتُّ إلى الزبونة التى بدأت تتساءل بكل اهتمام عن أسعار السلع المعروضة بكل حماسة وهى تتخطاها بكل سلاسة بعدما أمسكت بها قطعة قطعة، تراقب ماركاتها التجارية بدقة، تلك الزبونة تنتمى لقبيلة جاءت هنا للسؤال فقط! أعلم أسعار سلعك، والشراء فيما بعد. بالطبع مهما حدث، فلن أخرج قرشًا واحدًا من حافظتى، لا تحلم. أتطلع إليها فى ضيق. جلست بالفعل فى مواجهتي كأنه تحدٍّ ما! وهى تنظر إلى التحف المعلقة قائلة:

ـ لازم تعمل معايا واجب! أنا هاخد اكتر من حاجه.

قلت بآلية اعتدتها وبابتسامة مزيفة مرسومة على شفتيَّ دومًا:

ـ شوفي اللى انتى عايزاه وملكيش دعوه!

قالت باهتمام:

ـ هو عيونك ليه تحتهم سواد؟ إنت مبتنمش كويس ولّا إيه؟!

مندهش من سؤالها الغريب..

ما شأنك أنتِ؟! جئتِ هنا كي تتبضعى ليس أكثر! ما شأنكِ بالبائع؟! هيا فلتغربى عن وجهى! أعطيتها ابتسامة خفيفة قائلًا:

ـ معلش ضغط الشغل ومفيش أجازات فمرهق شويه!

بكل بساطة قالت:

ـ وليه بتقولى وانا مالى؟!

لا بد أن تتغير ملامحي، التى تلاشت على أثره؛ كونى بائعًا يجب أن يتحلى بكل هدوء، ويرضخ لجملة الزبون الأحمق دائمًا على حق، حتى فى تساؤلاته الفضولية:

ـ حضرتك سألتينى سؤال وأنا بجاوب عليه، إيه لازمتها الكسفه دي يعنى؟

ضحكت بكل استفزاز وهى تحنى حاجبيها بكل إصرار متحدية وهى تراقب المكان والسلع، ودون أن تلتفت إلَيَّ:

ـ وهو أى حد يسألك تجاوبه عادى؟! لو تعبان ومرهق متقولش لحد نقطة ضعفك حتى لو باينه قدام الناس! بالشكل ده هيبقى سهل عليا أضحك عليك؛ لإنى خلاص عرفت نقطة ضعفك إنت مرهق ومعرض للسرقة بنسبة ٧٠٪، حاسب على ردك، لازم تكون واثق، حاطت عينك وسط راسك، مش جايز أكون داخله عشان أضحك عليك واسرقك مثلًا؟!

آه حسنًا! جاءت لتعطيني درسًا آخر في فنون الحياة. وهى لا تعلم من يقف أمامها! إنسان متماسك، بداخله عظام هُرست، وقلب مشروخ، وأوردة مصابة بتصلب، معنوياته صفر، يريد أن يكون متماسكًا أمام البشر ولم يفلح بعد! كان هدفه الأول بذلك المشروع الصغير، الاندماج أكثر مع البشر ومعرفة خباياهم، عساه يومًا أن ينسى!..

ينسى ذلك اليوم الذى فارقه فيه أغلى من كان يملك!

روحه!

ماذا تريدين أنتِ الأخرى ها هنا؟!

*   *   *

ما حدث مدهش بالفعل!

تلك هى المرة الأولى!.

لم أعط أنثى ثقتى من قبل سوى المحبوبة السابقة.. فى بعض الأحيان تحتاج إفراغ شحنة حبيسة داخلك، ولقد أشبعت فضولها.. رغبتي فى البوح لإنسان أمين أو فاش كانت أقوى! بالفعل تخطينا حدود البائع والمشترى، تنظر إلى يدى ولا تجد خاتم الحبس (الاحتياطى) وهو الخطبة، باليد اليمنى، والمؤبد (الزواج) اليسرى. تساؤلاتها كانت كالخناجر الغائرة، تعرف هدفها، تريد معرفة ماضيَّ القديم. فضولها كان مريبًا، لو كانت أرسلتها فسوف أنتقم منها (حبيبتي السابقة) لو تطرق الحديث عنها! رغم أن لا حديث أقوى من حديثى عنها في تلك الأيام، بعدما أصرت على تركى بكل الطرق الممكنة؛ كي تزيحيني من طريق حياتها الذى كان واضحًا أمامها كوضوح الشمس! (بلا وجودى) بعد قصة حبنا الكبير،التي كانت تمتاز بالسذاجة والأحلام الطويلة التي لا تنتهى! التهمها الكثير من الناس في أحاديثهم، أحاديث البشر لا تتوقف عن التساؤل! فلا يكفون عن طرح أسئلة تتعلق بالخطبة الرسمية، والزيجة الحتمية، متى ستتزوجها وتختم تلك القصة الأبدية! لقد مللنا كثيرًا، حسد الناس كفيل بتفتيت جذور أجمل علاقة بنيت على سطح الأرض! أسئلة هدفها الأول تدمير تلك العلاقة التي حسبوها ناجحة بكل الأشكال! العين لا تحب رؤية من هو أفضل منها. يا سادة ـ كما تعلمون ـ

فالقريب أو الصديق حتى لو أظهر ابتسامة شغوفة ودودة، تحمل الكثير من الحب والوفاء، يجب إنهاء فضولها الكاذب، فتفرح وترقص وتطرب لكما، يجب أن تخبرها بأنكما أحبه وتذوبان فى بحر العشق، فتنمو مدافع وحواس الحسد مرددة: متى يتحطم حبكما الممل الساذج النادر هذا؟ حسنًا إذا أردتم معرفة الأمر. أصرت على تركى، وذلك كفيل بتدمير أى قصة حب، تمحو الماضي القديم بأكمله بـ(أستيكة) وشوهت كل شىء!. هيا لقد منحتكم ما تريدون، فلتبتسموا تلك الليلة ولتبحثوا عن غنمية أخرى غدًا، غنيمة قابلة للكسر، حب آخر يود التحطم على يد حسدكم الخارق. لقد عقدنا اتفاقًا (وهميًّا) قالت بموجبه الزبونة المتطفلة: قص على مسامعي، فضفِض، تبدو لى كعلبة الكولا المرجوجة، تحتاج فقط لفتح غطائها حتى تبعثر المكان ضجيجًا وشكوى لا تنتهى. أنا أعلم أنك تخفى شيئًا ما عن ماضيك، وتود قوله لأقرب شخص تقع عليه عيناك. هيا أخرج ما بدخلك، فأنا شخص أمين للغاية، أنت لا تعرفنى حقًّا، هيا فلا حرج، لن ترانى مرة أخرى، لو كان هذا سوف ينشر الراحة داخلك، أنا لست من هنا، أنا من منطقة بعيدة عن هنا، فلو خرجت من هنا فلا أعرفك، حتى لو قابلتني صدفة، أرجوك لا تُبدِ بادرة أنك تعرفني! اتفاق لا يمت للواقع والمنطقية بأدنى صلة! أطلق زفرة طويلة، فلنمنحها ثقتنا المؤقتة طالما لن أرها مرة أخرى. هكذا قالت. فذلك لا يحمل أدنى أهمية فى ذلك الوقت. لقد دست أنفها فى أكثر الأمور حساسية. قالت:

ـ هى كانت بتحبك؟

ـ هى بينت ده، ومتأكد منه ومش متأكد، الموضوع متلخبط، ببساطه أنا حبتها أوى أوى، وهى حبتنى بس، مش أوى أوى زيى، النسبه دي هى نفسها كلمتنى عنها، وقالت لى ألف مره إنت بتحبنى أكتر منى؟!

- كنت حنين عليها.

- يوووووووه ها ها حنين وبس؟! كنت معاها أخ وأب، وبعاملها زى بنتى، غلطاتها مش متشافة لإنى لازم أسامح واعدى واصلح، على قد ما أقدر.

بكل استنكار قالت:

- وسابتك بسهوله كده؟! مش مصدقه!

أنا بدهشة:

- ليه؟!

أكملت ومعالم الاستنكار تتشح على وجهها:

- مفيش بنت بتشوف حد حنين عليها وتسيبو بالسهوله دى غير لو كان حاجه من الاتنين، يا إما شكاكه بزياده، أو شافتك بتخونها مثلًا! معلش اعذر فضولى!

أتطلع إليها فى دهشة ولم أرد فأكملت:

- أنا معطلاك ولّا حاجه؟

أنا ببساطة:

- أبدًا. كلها ساعة واقفل المحل أول ما تقرب على ١٠ هخلع.

- يبقى احكيلى براحه كده، وخلى بالك من التفاصيل علشان اعرف أحللك شخصيتها صح.

- مممممم.. باختصار كده، الموضوع بدأ سنة ٢٠١٢ تحديدًا، قدام الشاشه اللى قدامك دى، دى شاشة الكيسه اللى كنت بكلمها منها.

ـ يا جبروتك! لسه محتفظ بالحاجه اللى بتفكرك بيها؟! تبقى لسه بتحبها!

أنا بغضب:

ـ لأ، ميت مليون مره لأ. دى تجربه وعدت!

بلكنة متحدثة هادئة تقول:

ـ واضح!

حقًّا! هل تعلمُنَّ أنكن فلاسفة تعيش داخل مجتمعنا كنوع من أنواع الرفاهية والتعالى؟! تدركنَّ ما يجول بداخلنا ولا تُبدُنَّ بادرة تبدى الفهم: خبثاء، ثعالب، أفاع، مضطرون للعيش معكن عن رضا، ولن نستطيع العيش دونكن! فلو اختفيتن من فوق سطح الأرض، فسوف ننبش الأرض بحثًا عنكن، فلا وجود لآدم بدون روحه. لا وجود لنا سوى بوجودكن!

* * *





(حديثي مع نفسي)...

بداية الحكاية...

حبيبتى..

كانت تنتمى لقبيلتين يشوبهما التناقض.. فكانت تنتمى للطبقة الريفية البسيطة.. وللعالم المتحضر الوقح المتلون، فأجادت تمثيل دور المحبة أمامي.. وأمام ذويها الابنة البارة!.. ما أقبح أن تقع مع فتاة لا تدرى لأى عالم تنتمى!..

الآن أجلس وحيدًا فى تلك الغرفة، فوق السطوح، أمام الشاشة الكئيبة المربعة. كنت فتًى مليئًا بالطموح والمغامرة، لا أمل من القراءة أبدًا، فالقراءة بحياتي مثل الماء، أقرأ ثم أقرأ حتى أرتوى، أملأ عقلي كي أكون مستعدًّا لمجابهة الآخرين، لا أحمل أدنى رغبة بتحيطم أحلامى الكبيرة التى كانت تحتاج إلى تنظيم واهتمام ورعاية وإصرار، وإنهاء كل تلك الأمور بتواجد أنثى بحياتي! سوف أتخلى طوعًا عن كل هذه الأمور كى أرعى (فتاة)، فتاة تحطم الأحلام، فتاة تحتاج إلى رعاية واهتمام وحب، وتجعلنى أعمل فقط لها، ومن أجلها! كلَّا كلَّا بالطبع! من يقبل بذلك الأمر؟! حقًّا لا أريده، على الأقل فى الوقت الراهن، ولا يوجد على اللائحة مثل تلك الأمور، على الرغم من أن أرض الواقع، وفى تلك الأوقات، طموحاتى العالية ضائعة واهنة بعد تحطم البورصة المصرية على يد الثورة المصرية العزيزة المخيبة للظن، ربما لا ينعشها أى شىء، أحلامى بالجمهورية الشخصية، أو كما قال كويلو: أسطورتي الشخصية، اندثرت ودُفنت في أعماق إحدى الصحارى لا أعلم عنها شيئًا.

لماذا أستمتع بمشاهدة المسلسلات التركية فى تلك الأوقات؟!

(مسلسل تركيى). (ياسمين ابله).. برين سات، فتاة الأحلام الضائعة، وحلم الفرسان للفوز داخل الحرب، أميرة الكون المتوجة، التلفاز من

خلفي مسلسل تركى، وشاشة الـ PC أمامي، ظهرت فتاة أخرى تضاهيها جمالًا وفتنة وطفولة، أمامي على شاشة وعبر الـ Facebook وعبر غرفة المحادثة اكتشفت أخرى لا تستحق أن تقارن! هي خليط عجيب، يبهرك منذ اللحظات الأولى: ذكية، مثقفة، رقيقة، طفولية، بريئة، تحب العمل بكل إخلاص، ممثلة شهيرة! تلك الفتاة رأيتها مرة فى أحلامى ذات مرة، أو فتاة مثلها، الشبه شديد بينهما! لا تتعجب يا صديقي، فكثيرًا ما يشاهد أحدنا حلمًا، وما أن يفيق يتحقق بحذافيره! اعتدت منذ الطفولة رؤية الأحلام التي تتحقق، رأيتني ذات مرة بصحبة صديق قديم ذهب إلى دولة (الإمارات) فقدت الأمل فى رجوعه إلى البلاد، وفى الصباح، وجدته يهاتفني، لم أندهش كثيرًا، فقد اعتدت مثل تلك الأمور! رأيت في أحلامي فتاة وحيدة، تجلس على أرصفة ميدان طويل، أمسك بيدها بكل حنان كي أوصلها إلى الرصيف الآخر، كانت رحلة قصيرة، شعرت نحوها بحب جارف، وتناسيت (مجرد حلم)! أنظر إلى عينها التي كانت تتصف بالبراءة، تدمع عيناها وهى تنظر إلى يدى الممسكة بيدها، تقول ودمعة تتساقط على وجنتها (هل ستتركها)؟!.. لم أجب ونحن نسير، ولا أكف عن مراقبة عينيها، وما إن اقتربنا من حافة الرصيف الآخر حتى فارقت يدى، وعدت إلى أرض الواقع سالما، أنظر إلى يدى بكل جدية. هل كانت ممسكة بيد أحد ما منذ ثوانٍ قليلة؟!

على أرض الواقع، وعلى مواقع التواصل الاجتماعى، رأيت فتاة، كسرت جمود وغموض(*) شخصى أمامها، عكس باقى البشر، فتاة وحيدة، تملك من الإخوة تسعة، أنا لا أكذب. إنها حقًّا تشعر بالوحدة وسطهم، أو هكذا

(*) الشخص الغامض: لا يحمِّل العبء على غيره، لا يجعل الناس ينظرون له نظرة المسكين، شجاع لأنه يحمل الكثير من الآلام، ولكنه يجعلها لنفسه ولا يظهرها لغيره، وهو أيضًا الذي يحتفظ بأسراره لنفسه، لا يخبر بها أحدًا، يتمتع بالمسؤولية وإنكار الذات عندما يتعلق الأمر بشخص عزيز على قلبه.

قالت لي. قالت الكثير والكثير. والأدهى أنها حدثتني عبر حساب مزيف! هكذا شرحت لي ما مر بها عبر سنيٍّ عمرها.. وكيف خدعها رجل من قبل! قولي لي بماذا تحلمين؟

قالت بكل أنوثة هادئة وواثقة: أريده طموحًا.. مثابرًا.. يحب السفر وووووو...

كلمات كثيرة جدًّا لا تُعد ولا تحصى عن ذلك المجهول اللعين! هن دائمًا كثيرًا ما يصفن ما يتمنين، رغم أن الطبيعة لا تلبى نصف رغباتهن (فتى الأحلام) مخلوق فضائي عابر، نادر الوجود على سطح الأرض، لكنهن يقبلن بالنهاية. هيا أكملي..

أريده كذا وكذا..

قلت لها بنفاد صبر: تريدينه أبًا رغم أنك تمتلكين واحدًا؟! تريدينه مشهورًا مثلما كنتِ يومًا! اللعنة! لم أصفك بعد! بالرغم من أن وجهها شبيه بوجوه الأطفال بالفعل! (عندما تريد) يزينه عيون كاللؤلؤ المدفون داخل إحدى القواقع البحرية، يظهر بريقه عندما تقرر البكاء، ذو بقعة بنية تستطيع تمييزها في وضح النهار، ويصيبك الحيرة لحلاك سوادهما عندما تغرق الشمس تاركة الظلام، يغرق معالم الأنوثة (عندما تريد) فى خطواتها البريئة سريعة الركض، وكأنها تسير عبر سحابة سماوية هشة، لا بد لك أن تحميها من نفسها، ومن أعين الناس، فالناس سوف يفسرون أفعالها خطأً، تثير الريبة من تلقائيتها العجيبة فى ردة فعلها! أنفها دقيق، شعرها منسدل دائمًا، مصرة على إثبات أنوثتها رغم أنها (لا تريد). تتعامل مع الجميع بآلية شديدة ومهنية. فلو كنت بائعًا، فسوف ترهقك بالتأكيد، سوف تجعلك تلف أركان ذلك المحال؛ بغية أن تشرى أيًّا من المتسائلات التى طرحتها لمعرفة السلع، وسوف تصاب بخيبة الأمل عندما تذهب

وتتركك لتكمل وجبتك الشهية. ليتها لم تدخل! تفور الأرض من تحت قدميها وتذوب، عندما تتحدث عن العمل بكل حماس، وعندما تهتم قليلًا بعملها؛ فسوف تجعل حياتك مخزنًا لهموم عملها غير المستقر، وسوف تدخل قريبًا حيز عدم الاستقرار، وسوف تطرحك أرضًا؛ عقابًا لك لتأخرها عن عملها الذى كان كبيرًا وبالغ الأهمية بالماضى، ولن تقبل بأقل منه بالمقابل، ولذلك فهى تتقبلك بكل ترحاب إلى أن يأتها عمل أكبر بكثير منك أيها المعتوه! تثير الشكوك عندما تحدث! أقوم بلفت انتباهها لذلك الأمر ولم أفلح، فأحاديثها عن الرجال قبل الارتباط الرسمى يثير القلق! وبالتحديد زملاء العمل المجتهدين، يشعرك بالنقصان الدائم، أنت رجل ناقص حتى تصبح ناجحًا مثلهم، حتى تكون فارسًا مثلما أحلم. ذلك الأمر يصيبك فى مقتل، لكنك تقبل لشىء ما مجهولًا! سوف تفسرها بالنهاية (غيرة محب) ليس أكثر، الوضع حرج، ولكنك تصر على أن تصبح الأفضل، الفتاة أوقعتها الشاشة صدفة كبديلة سريعة لنجمة أخرى رفضت الأجر، الكفة رجحتها، وظهرت أمام الجمهور؛ لتصبح نجمة أخرى أبعدتها الأضواء رغم تألقها الأخير الملفت عنوة ولأسباب غير متوافقة بطرق السائرين نحو النجاح. إلا أن القوم لا يريدون سوى الغانيات فقط، فزوت عن كل شىء وابتعدت مؤقتًا.

أبوها (الشقيان) الرجل الذى احتاجت حنانه وسط الأحراش المظلمة، حتى فقدت قدرة التمييز بينه وبين وحوش الغابة! بالرغم من أنه - ورغم معرفتي به شخصيًا - أثبتت الأيام أنه حنون ومتحدث سياسي لبق، بالرغم منه أنه لم يكمل دراسته أيضًا، لكنك تجده ملمًّا بالأحوال السياسية، عميق الفهم والدراسة. كان يصفعها بكل قسوة فى صغرها حتى فقدت سمعها تمامًا بالأذن اليسرى، ومعها فقدت السمع والبصيرة معًا جوار أذنها اليسرى، وأصبحت تكرهه بشدة، وعند العودة للحديث بشأنه، تمدح وتمدح، كفتاة

لديها أب. أمها تركته وذهبت لآخر، وذلك كان أكبر درس تعلمه من الحياة، تزوج بعدها واحدة واثنتين، وأخبرها أن أمها قد ماتت وقام بدفنها، فلا تتساءل أين هى، وإلا سوف يكون عقابها كبيرًا. لديها أخت وأخ من من نفس الأم، وباقي الإخوة والأخوات من الاثنتين الأخريين،الأخت سامية، والأخ على. سامية كانت الوجه الآخر لها تمامًا فى كل شىء، وبحق، كانت هذا الفتاة جوهر العلاقة. كثيرًا أحدث محبوبتي التي تدعى ـ ومعذرة لو تناسيت ذكرها مسبقًا، فلا أحد يذكرها سواى فى تلك اللحظات ولا يمدحها سواى، ولا يعشقها سواى، ولا يمسك كف يدها ويداعبه مثل الأطفال سواى، ولا يتحمل عصبيتها الموروثة من جينات الأب سواى، ولا يراقصها كالأميرة فى زفاف رفيقاتها سواى، ولا ولا ـ (آسيا) كانت تحدثنى كشقيقتها، وكأنها تتقمص أسلوبها ولكنتها، وبصوت صديقتها (يمنى)، ذكرني بفيلم شادية قليلًا، تلك الزوجة التى تذهب لمشاهدة فيلم وتتقمص الدور عن ظهر قلب، أبله، معتوه! كيف تقبل الارتباط بتلك الفتاة؟!..

الحب!..

إنه ذلك السجن، ذى الجدران الحمراء، وبعض الأحيان الوردية، تقبل أن تُأسر داخله فى رضا وقبول. شىء مخجل وسخيف! قبلته، وشملني إصرار عجيب على الاستمرار والإمساك بمظلة الكفاح معها، عسى خلف الأبواب الشرعية المغلقة (الزواج) أن أحدث فارقًا وتغييرًا شاملًا. صارحتني فى العاشر من رمضان بحبها المكنون، ولا أدرى ما ارتباط ذلك اليوم بمصارحتها لى بحبها الخفى! ذكرى نصر الوطن بلا شك، ونصرة قلبي فى تلك الحياة الداكنة، وعن طريق موقف سخيف آخر عن حبيبها سابقًا يلقب بـ (الأهتم) الذى حدثته بكل وحشية، حتى خشيت أنه فعلها وبلل بنطاله، دار بيني وبينه حديث صغير، حديث صريح حقًا، أخبرني من خلاله أن

التي معي تجيد الكذب وقلة الأصل معًا، لو كان لينصحني فبتركها! أعلم أنه كاذب، برج العقرب لا يحب الكذابين ممن حوله! ولا أدرى، أحقًا هل برج العقرب يحب الكذب بنفسه ولا يحب من الآخرين الكذب عليه؟! لا لن أفعل مثلما فعل الآخرون! إنها لا تكن لأحد ذرة امتنان واحدة، لا تذكر سوى سيئاته وأخطائه، حتى لو كان ممتلئًا بالحسنات. ولكننى عدت للأسلوب الصارم مجددًا، وهددته لو حاول مجرد محاولة. قال لى بمنتهى الصراحة والخوف:

ـ يا باشا ولا كأنى أعرفها..

أكملت بمنتهى الصرامة:

ـ ربنا يوفقك وأفتكر إن ليك واحده مستنايك مش عايزينك تجلها ملط.. ومتعلم عليك!

أنا وهى إلى الأبد، سوف نقاوم العثرات والنكبات معًا! سوف نقاوم غدر البشر معًا! سوف نكون ثنائيًّا لا يُشق له غبار فى كل شىء. قصة أخرى تضاف لسلسلة حكايات العشاق الأبدية. أنا وهى وكفى، لا يعنيني الناس كثيرًا، ولا القبائل الغجرية، ولا الغابات والوحوش، طالما نحن معًا. طالما كفها الأملس مرافق لكفى، فلتُدفن الأرض وتُطمس، فلتتكور الكواكب وتندثر، فلتنقرد الديناصورات إذن، وليتقلص حجم التماسيح خيفة من بنى البشر طوال القامة، ليزحف على الأرض ويختبئ بنعومة داخل أطراف البحيرة، ادعت تلك الليلة، وبكت كثيرًا كى لا أتركها، أن أظل بجوارها، أن أساندها، أن أحضر لها الكتيبات من كل الأصناف. إنها تعشق القراءة، تعشق! لو كانت تعشق شيئًا في تلك الدنيا لن تعشق سواى إذن! عندما يكون الدافع حبًّا فأنت تفعل المستحيل! دخلت كهوف الصحافة من أجلها، ومن أجل أن أصبح ذلك الفارس، فتى الأحلام الذى يمتطى الحصان

الأبيض، ومن أجل تحقيق حلمى القديم، من أجل أن ترى كلماتى ويراها الآخرون وتفرح! من أجل أن تفخر بى مثلما تمنت وتفرح! من أجل أن يفخر أبناؤنا بأبويهما وتفرح! من أجل النصرة العظمى وتفرح! يجب أن أصبح مشهورًا كى تفرح! مثلما كانت يومًا ما! ذلك وحده كان كفيلًا بتفجير أعتى المشكلات والنكد المصرى الأصيل.

كيف ومتى؟!

لا يوجد موعد محدد لاستقباله.

* * *

إلى عروس البحر المتوسط، مدينة الإسكندرية.

ذهبت بصحبتها لتصوير أحد مشاهدها فى ذلك الفيلم السطحي، مع ذلك الممثل القدير الذى لا يحبه أحد، أفكاره تستحق الردم، وهذا وحده كفيل بجعله الأكثر كرهًا على الساحة. فرصة جاءت لها من حيث لا تدرى؛ لتمنحها فرصة أخيرة لممارسة العمل بكل نهم واهتمام وحماس، ولها مشاهد تمثيلية هناك على ضفاف شواطئ الإسكندرية.

ها هى مجددًا تقف أمام الشاشات من جديد، ورغم صغر دورها، إلا أنها لفتت الأنظار لأدائها المميز التلقائي البسيط. وقفت أصفق بكل حرارة خلف الكواليس فخورًا بها. تلك حبيبتى يا قوم، فلا يحق لأحد أن يفرح لها سواى. بكل حرارة، انتهى التصوير.

فركش......

* * *

مشكلة بطلتها الغيرة! لماذا يصافحها الذكور بكل تلقائية وكأنهم إخوتها التقوا بها بعد فراق طويل؟! لماذا طلبوا منى بكل احترام مغادرة موقع التصوير؟! انتهى كل شىء، وها نحن فى طريق العودة بسلام. لم أشعر بذلك السلام فى طريق العودة. لا بد أن أتحدث بشدة عن ملامسة إيدى الشباب ليدها بكل سهولة ويسر دون اعتراض! لماذا قاموا بطردى بموافقتها بكل رشد بحجة أنه لا يُسمح لأفراد غريبة بالتواجد أثناء التصوير؟! وذهابى معها كان بغرض المساندة، لو اعترضت فأنا أكرهه وأكره نجاحها! جلسنا بالمقاعد الخلفية للسفينة الأرضية الملقبة بالـ (سوبر جيت) فى طريقنا للذهاب والابتعاد عن الشواطئ المنتعشة بصحبة الليلة حينما أوشكت عقارب الساعة على الاقتراب من الرقم ٩ معًا، ممسكًا بيدها، متحاشيًا الأحداث المتلاحقة عن عملها مفجر الأزمات، أخفتها بوجبة دسمة فى سان ستيفانو، تجاوزت عن الكثير من الأمور التي جعلت الدماء تثور داخل عروقي. جنونها المفرط، أنانيتها المبالغ فيها، عقابي المتمثل فى صفعها لباب التاكسي على إصبعي في لا مبالاة قبل ولوجنا أبواب السوبر جيت، ولم تكن تقصد هكذا قالت. صُعقت مذهولة فور علمها أنها تسببت علنًا بوجعى وألمى الجسدى! وتغاضيها عن الوجع النفسى الذى كان يسرى داخلى فى تلك الأوقات، قالت: كيف فعلت هذا.. واااااا أسفاه! اسفة! ورغم هذا، نظرت لها فى صمت دون أى بادرة بذلك الألم الذى ينهم أصبعي المسكين، الذى أخذ ينزف اعتراضًا عليها، إلى أن اكتشفت دواءً آخر لنزيف الأصبع على يد بائع الشاى المتجول، التي كانت لهفته أكثر جدية من لهفتها المصطنعة الشغفة!

صب الماء الساخن على أصبعى وربطه جيدًا قائلًا:

- خد بالك يا بنى المره اللى جايه، الحمد لله إنها جات على صباعك!.

لم تكف عن الاعتذار، عن الطبطبة الحنونة، تملس على أصبعى فى سرعة وكأنها تمدنى بطمأنينة، احتواء الحبيبة لا يظهر الآن! وددت لو حطمت جمجمتها وهرستها مثلما حدث وهرست أصبعى قبلًا، كانت تشعر بالندم. طبطبة وتأسف، لا تكف عنهما منذ صعودنا الحافلة، أسامح وأتخطى وأقبل يدها، كيف فعلتها حقًّا؟! لست أدرى! أقول بكل جدية: عزيزتى، ألم النفس أقسى بكثير من ألم الجسد لو تعلمين!

قالت بكل رقة أنثوية:

- معتز.. أنا عيزالك وحده أحسن منى.. إنت تستحق الأحسن.

- إنتى عبيطه ولا إيه؟!

- أنا بتكلم جد.. مش شيفانى أناسبك.

أقبل يدها بحنان حسبته أبويًّا، من يعشق إحدهن يجب أن يكون أبًا فى بعض الأوقات، وأخًا فى أوقات أخرى، وحبيبًا، قبلتى تعنى أنا هنا، أنا معك، لن أهجرك، حتى لو أصبحت أسوأ فتاة فى ذلك الكون وأقبحهن، حتى لو تشوه وجهك وأصبح عجينًا لا يستطيع أحد تمييزه سواى، ولا يستطيع أحد رؤيته سواى، حتى لو أصاب أوصالك الوهن والضعف، وأصبحت عجوزًا لا تدرك أين وضعت ذلك الدواء اللعين، رغم أنه جوارها! حتى لو انكمش وجهك من العجز، ومُحى جمالك للأبد، أنا هنا جوارك، أقول أنا:

- بطّلى الكلام ده! أنا بحبك ومش هسيبك.

تقول آسيا:

- يا معتز إفهم، أنا عيزالك واحده تستحق كل الحب ده! أنا حاسه إنك

بتحبنى أكتر منى، الميزان لازم يتساوى، كل مره أحس إنك بتحبنى أكتر منى بحبك! لازم أحبك أكتر منك وزياده كمان!

نظرت لها بكل سخرية! كيف ومن اعترف أولًا بحبه كان أنتِ؟! كيف ومن احتمى فى ظلى أولًا كان أنتِ؟! كيف ومن تمسك فى ذراعى كان أنتِ؟!

إنها تكذب، تذوب فى عشقى ولا تستطيع التعبير!

أقول أنا:

ـ ماشى أنا بحبك أكتر وراضى بكده!

ـ إنت ليه فاكرنى بهزر؟ أنا مبهزرش..

ـ إنتى عايزه إيه دلوقتى؟

ـ عايزالك وحده أحسن منى!

ـ بس بشرط.. تكون شبهك وعنيها شبه عنيكى.

وقبلتها فى عينها بعدما أغمضتها كالأطفال، هى تجيد لعب دور الطفلة. فقالت وهى تغط فى نوم مزيف:

ـ هظلمك معايا صدقنى!.

ربما قلت لها كثيرًا من الكلام المطمئن بتلك القبلة الحانية. لم أرتح بعدها، لم أهدأ، ثم شىء مروع يحدث داخلى الآن، شىء ينذر بتهديد مستقبلى! هل يمكنها حقًّا تركى لغيرها؟! هل تفصلنى عنها بكل سهولة ويسر؟! هى لا تثنى على أحد، هى لا تمدح أحدًا سواى، سوى من أحبته، كما قالت بكل صدق! والآن ترغب بالمغادرة بعدما ربطت قلبى أخيرًا!

وصلت إلى المنشود، أوقعتنى فى حبها بكل سلاسة وتريد المزاح، دلالًا، أو أو .. هى فقط تمازحنى بحبها. أليس كذلك؟!

* * *

مع الزبونة التى تردد الأسئلة فى شغف قالت:

- هى بتسألك كل شويه إنت مين؟!

- وبتكلمنى كأنها لسه عرفانى من يومين، بالذات لما تبتدى تحكى عن نفسها، بتحسسنى إنى واحد زميلها فى الدفعه، قابلته صدفه وبتحكيلو، الموضوع ده جننى مقدرش أخبى! ودى كانت أكتر حاجه بتستفزنى من العلاقة دى. تصورى بقولها أنا الراجل اللى نفسك تلاقى فيه مواصفات فتى أحلامك بالدليل العملى قلبت أقوالى لأفعال، ووقفت جمبها وقت ما كان كل الناس بعاد عنها، حبيتها وادتها كل وقتى وكل حبى، عملت كل حاجه تخليها تنبهر بيا - فى حدود الإمكانيات - بطلت كلام وبقيت أوريها بأفعالى! اللى بيحب بجد بيتغير، أنا غيرتها فعلًا واتغيرت، وحاولت كتير أنصحها تعمل الصح فى كل أمور حياتها، حاولت أطلعها من حياة الوحدة، موعدتهاش وعد وموفتش بيه!.

تتأملنى، ثم تصمت وتنظر إلى الجهة اليمنى بزاوية مقصية، فلاحت لمعة بعينيها فى تلك اللحظة كمن يتذكر شخصًا ما، تتذكر حبيبًا ما! فعلت معها كل شىء ولم تبلغ بعد أدنى مرحلة من مراحل صناعة فارس أحلامها الذى

يعيش بمخيلتها فقط. هذا ما يبدو، لا بد وأنها تنتمى إلى طائفة الحسية(*) مثلى، تعود إلى أرض الواقع لتعاود طرح سؤالها بكل اهتمام:

- من كلامك نسيت أسألك.. هو انت مشهور؟

- عملت كده وبقيت مشهور بوجودها فى حياتى! اشتغلت فى الصحافة، مقالاتى فى وقت قصير اتعرفت، وحاليًا بحاول أوفق بين شغلتى كصحفى وكتاجر.

- بس أنا معرفكش قبل كده! أعذر جهلى، مليش فى شغل الصحافه والكلام ده!.

- ههههه ويستحسن متعرفنيش! وتلتزمى بالاتفاق.. أنا بحب الالتزام فى الاتفاق.

- والله هى الخسرانه ولا تزعل نفسك!.. وشك سمح وأخلاق، ربنا يزيدك ويرزقك الأحسن منها.

- هى كمان كان رأيها كده!.

تطلعت إلىَّ بدهشة مرة أخرى!

تدخل زبونة أخرى لا تقرع الأبواب، ذلك إن كان للمحل باب من الأصل! ودون استئذان، تتطلع إلى المكان كمن يتطلع إلى المحيط بأكمله،

(*) الشخص ذو النظام الحسي: هذا الشخص يتميّز عادة بالهدوء، ويتحدث بصوت منخفض، ويتنفس ببطء وعمق، ويعطى اهتمامًا أكبر للشعور والأحاسيس عن الأصوات والصور، يأخذ قراراته بناءً على أحاسيسه، وقد يكون من الممكن أن يؤثر الآخرون على أحاسيسه وبالتالى على قراراته.

تنظر كأنها هى نظرتها الأخيرة فى الدنيا، تسير بنعومة كأنها هى سفيرة تسيطر على بلاط الملك، تراقب التحف الملكية بكل فضول، تتمسك بإحدى التحف كأنها تقيِّم ثمنها الحقيقى، حتى لو لم تكن تنوى شراءها، فهى أستاذة فى تقدير ثمنها الحقيقى، تتركها وتذهب إلى ركن الأدوات المنزلية، تمط شفتيها فى اشمئزاز غير مبرر وهى تلتقط أحد الأشياء. قلت للجالسة جوارى:

ـ ثوانى.. فى زبونة داخله، لو ممكن نأجل كلامنا لوقت تانى؟

قالت بعناد:

ـ إنسى! مش همشى من هنا غير لما تكمل.

وبينما أفكر فى خدمة تلك السيدة، تخرج مثلما دخلت، تدخل الأخرى، كأنها هى وردية تقوم بها المباحث النسائية، تنظر إلى تحفة فتاة ترقص الباليه، وبنفس نظرات عدم الاكتراث، تحفة فنية لا تباع إلا بثمن غالٍ، ويجب أن أبيع بثمن منخفض قليلًا حتى تتم عملية الشراء!

تمط شفتيها قائلة أمامها:

ـ بكام دى؟

أجيب بتلقائية:

ـ بـ ٥٥ بس.

تنظر نحوى كالمصعوقة، كالتى هبط عليها مياه دش بارد فجأة! اندهاش اتسع له فمها بكل قسوة:

ـ ليه يعنى ٥٥!.. هى ٣٠ حلوة بس..

ـ يا فندم التحفه دى أغلى من كده، بس احنا عاملين خصومات خاصة بمناسبة الافتتاح.

ـ ليه؟ إنتوا فاتحين من إمتى؟

ـ من شهر ١٠ اللى فات، شوفى إنتى عايزه إيه، وخلِّى عنك خالص!.

ـ هما ٣٠ بس حلوين عليها!

ـ صدقينى مش هينفع، لو فيها كنت قلتلك.

ـ بـ ٣٥ج بس حلوين أوى!

لعبة قديمة تسمى الفصال، ليت حبيبتى السابقة تعلم شيئًا عنه! لكانت صالحة بالفعل لأن تكون زوجتى عن جدارة! أقول مجددًا:

ـ ٥٠ بس!

تقول بغضب:

ـ خليهالك إشبع بيها!.

أقول ببساطة:

ـ أشكرك يا فندم.. ده مكانك.

تترك المكان وتذهب فى غضب، وكأنها خرجت من غرفة الضغط العالى، تقابل صديقتها بالخارج، تقول بصوت يسمعه بالكاد المحيطون: (محل زباله أصلًا). تنظر إلى الفتاة المستديمة التى تجلس جوارى باستنكار قائلة:

ـ دى شتمتك!

ـ لازم أتقبل كل شىء هنا، إنتى بتعملى سمعه للمحل.. لازم تستحملى



علشان تكملى.. اللى نفسه قصير بس هو اللى مبيكملش.

تعاود الأدراج لتمثيل دور صحفية نشيطة:

ـ طب كمل.

متسائلًا:

ـ إحنا وقفنا فين؟

ـ وقفت لحد ما كنتم...

قاطعًا حديثها:

ـ فيلمها!

* * *



(حديثى مع نفسى)..

(نظرية الفراق)، لما تسمع حد بيقولك فى مره متسبنيش، ما صدقت لاقيتك، إبعد عنه فورًا؛ لإنه عنده مفهوم الفراق.. فهييجى عليه لحظه يفارق.. قبل ما انت تفارق.. بس ساعتها مش هتعرف، مش هتعرف تفارق! إبعد!.

من يحب يعطِ بلا حدود، ولا ينظر للخلف، ولا ينتظر المقابل. من يحب!.



قبل الذهاب، وقبل الشروع فى بدء فيلمها السينمائى الذى كان بطله يكرهه الكثيرون..

حدثت مشاجرة بيننا، الكوافير رجل! قلت:

ـ أنا مش عايز راجل يمس شعرك!

تقول آسيا:

ـ بس لازم تتقبل شغلى زى ما هو، أنا مش بجبهم بمزاجى!

ـ أنا متقبل شغلك وعلى عينى وعلى راسى، بس بردو مفيش راجل هيلمس شعرك، وقدّرى إنتى غيرتى بقى!!.

ـ بس دى الحاجه الوحيده اللى معرفش أغيرها، أنا طلبت من الإنتاج يغيروه والله، وهما قالوا مينفعش غير ده.. أعملك إيه تانى؟

ـ كنتى من الاول تقولى.. مش تحطينى قدام الأمر الواقع، أنا محبش موضوع الأمر الواقع ده.

ـ أنا والله ما بحطك فى أمر واقع.. بس هو الموضوع كده.. أعمل إيه؟!

هل أحبها إلى تلك الدرجة؟!

فلتُحرق إذن لو لم تكن تملك شبرًا واحدًا داخل أراضى قلبى الذى اتسع لها وحدها.

هل أغار إلى تلك الدرجة؟! السيدات كثيرًا ما يتقبل رجالها ذلك الوضع إلا أنا!. إنما وضعته كى أختبر صبرها وحبها لى ليس أكثر.

ولكن لا أقبله على أية حال! وضع يد أحد الرجال على شعيرات حبيبتى يفجر داخلى ثورة، تريد تحطيم كل من يقف بطريقها.

ـ لو رحتى بكره.. يبقى كل شىء نصيب.

مصعوقة تقول:

ـ كل شىء نصيب؟!

أقول بنفس الجدية:

ـ رجعيلى كتبى، بكره أنا هرجعلك كتابك القديم بعد ما يتجلد.

بكاء وكلمة نصيب.. كيف قلتها؟! وكيف تقبلها لسانى؟! تسرعت كثيرًا. ليس غريبًا قولها فيما بعد عند (السوبر جيت)، (عايزالك واحده أحسن منى!). الفراق كانت بدايته من عندى أنا. أنا من حاول التهام العقرب أولًا! أبراج العقرب لا يدع أحدًا يتركه أبدًا، وتلك كانت كذبتها، لقد تركتهم جميعًا كالسابقين وادعت العكس! سوف تعود، وعند العودة، سوف تجعلنى عاشقًا لها كالممسوس، وعندها تذبحنى! أليس أنا من حاول ذبحها أولًا بالفراق؟! أنا من بدأ، وهى سوف ترد الصاع. هل تفعل؟!

هى حبيبتى!. كلَّا لن تفعل!

* * *



هى تقول:

ـ إنت مين؟..

ـ أنا فلان الفلانى، اللى حكتلك عنى من يوم ما تقابلنا.. أنا كذا وكذا.

ـ أنا بحبك!.

ـ وأنا بموت فيكى.

علمت أنها ذهبت!.. أنا معتوه! كيف أضع نفسى فى كفة وعملها فى كفة أخرى؟! وأخبرتنى شقيقتها أنها ومنذ عودتها تعد لك خطة لتفتك بك! وتفصل لحمك عن جسدك بكل نعومة! بالطبع لم تقل هذا. قالت: أتت باكية، تدمع بحرقة من أجلى ومن أجل قرارى. يا ويلى!.. لا ليست هى. لو بكت الأرض أجمعها لا تبكى عيونها! ماذا فعلت؟! أسرعت بالهاتف، وقلت لها بلهفة:

ـ بحبك يا عبيطه.. واللى عملته ده كله من الغيره.

قالت ولا تزال آثار البكاء واضحة من نبرتها الحزينة:

ـ بس ده شغلى وغصب عنى.

ـ المره دى.. وأول ما يخلص شغلك.. كوافيره.. ها كوافيره!.

ضحكات.. ثرثرة.. عادت المياه إلى مجاريها،حديث عن يمنى صديقتها.. إلخ إلخ.

* * *

مع الزبونة تقاطعنى قائلة باهتمام:

ـ هى معاها حق بصراحه! مكنش ينفع خالص تحط نفسك فى كفه وشغلها فى كفه تانيه.. إنت غالى وشغلها كمان غالى.. هى فعلًا مضطره تقبل.

ـ ـ الموضوع مش كده.. الموضوع إنى بغير عليها؛ محاوله منى لإثبات حبى ليها، مش معامله أمريكانى، «أوبن ما يند» أنا شبراوى ودمى حر.

قالت:

ـ ونظامك إيه فى الفلوس؟!

- هههههه! ده موضوع بزمتك تكلمينى فيه!

- لا أنا بتكلم فى الموضوع بشكل عام.. بخيل.. كريم.. الكلام ده يريح القلب أو يتعبه، يعنى أى واحده فى الدنيا تحب يكون اللى معاها مكفيها من كل ناحيه!

- رغم إن سؤالك سخيف، بس عمومًا مبدفعهاش مليم طول منا معاها، مثلًا مفيش مطعم مدخلناهوش فى بلدك، مفيش ذكرى مسبنهاش فى أى مكان، كل الأماكن، حتى بالرغم من الأزمه الماليه اللى كنت بعانى منها، ماكنتش حارمها من حاجه، رغم إنها فى الأول استغربت إزاى أدفعلها وأدفعلى! اكتشفت بعد كده إن كل زمايلها اللى حذرتنى منهم فى الأول سامية أختها! حذرتنى منهم وإن دماغهم متركبه شمال وهى هوائيه وبتجرى ورا أى تيار، زمايلها بيتعاملوا بنفس المعامله (المعامله أمريكانى) هى كانت مندمجه مع مجتمع ووضع مش بتاعها خالص، تقليد أعمى، حتى اخواتها، فرحوا جدًّا لما شافوا واحد هيرجعها لأصلها ويبعدها عن الوسط اللى هى فيه، واحد يكون مسؤول عنها، ويقف معاها فى وقت الأزمات، يسألها بشكل يومى عن الصلاه، أنا متربى على الجدعنه، مكنتش بخيل لا، الفلوس مكنتش مهمه عندى بالمره.

- بس كانت مهمه عندها.

- إزاى ده؟

- يعنى هى كانت حبه يكون اللى معاها يكون معاه، بدليل المطاعم الفخمه و.. و.. زى ما بتقول، بتفضل الأماكن الحلوه دايمًا على سبيل الفشخره الكدابه، حد غيرها كان قالك وفر عشان تحوش.. مستقبلنا أهم وعلشان.. وعلشان..

- حد غيرها كان بيحبك فعلًا؟!.

- لا هى كانت بتقول.

- يا سلام!

- آه والله!

تقول:

- خطر على بالى سؤال يا معتز.. سؤالها الأخير محسسكش إنها بتقولك عايزه أسيبك بشياكه، علشان لاقت خلاص اللى تهتم بيه زى شغلها مثلًا؟

يقشعر بدنى! لماذا يؤلمنا البشر بأسئلة منطقية قد تعمق الجراح أكثر وأكثر؟! ينعقد حاجباى أكثر وأكثر، حتى بدوت غاضبًا من سؤالها الأخير! وقد لاحظت الأمر، ولا تبدى انتباهًا، بل تنتظر الأسوأ.. الإجابة.

أبتعد عن وجهها، سوف أرد وأنا أنظر إلى سيراميك الأرضية اللامعة، ذكرتنى بزيارتنا الأخيرة لمحلات الأرضيات الفخمة أثناء سيرنا للبحث عن قطع وأثاث منزلنا، كل شىء يذكرنى بها، حتى تلك الأدوات والتحف المنزلية التى بحثنا عنها فى كل مكان أحضرتها؛ كى تحضر أدوات منزلنا، فلم يكن أحد من ذويها يهتم بأشيائها المنزلية، وعلى يد آسيا أصبحت خبيرًا، لذلك الإجابة على سؤالها يحتاج لرؤية، لا شىء فى بعض الأحيان، فأقول بنبرة بطيئة يشوبها الغضب الحزين:

- كنت بحس إنها بتبقى عايزه تبعد، رغم إنها اللى بتتصل بيا، واهتمامها المبالغ فيه بشكل يومى، كنت بحس إنها بتقول هسيبك، بس مش ده وقته، كانت بتتصل لما بتحس بالوحده، مش بالحب، كنت حاسس إنها بتقول لو كنت لاقيت غيره كنت قبلت، و..

قاطعتنى قائلة:

ـ لو رجع بيك الزمن هتحبها بردو؟

فاجأنى سؤالها المباغت! فحاولت الإجابة، لكنها تقاطعنى مرة أخرى، وكأن هواياتها الوحيدة هى المقاطعة قالت:

ـ متتسرعش، جاوب وفكر.. إنت عرفت إنك مش مهم عندها، وهى كانت أنانيه، لو كان فى شغل كانت اهتمت بيه وكانت....

قاطعتها:

ـ إنتى بتقولى إيه؟! أكيد كانت بتحبنى وحبها قل، الظروف وحدها اللى جمعتنا ببعضنا ومكنش لينا يد فى ده، هى كانت بتدفعنى إنى أكون أحسن فى حياتى وحياتها قبل ما تتغير وتتحول..

تقاطعنى:

ـ جاوب على السؤال..

آخذ شهيقًا طويلًا ثم أنظر إليها بكل جدية:

ـ لو الزمن رجع كنت اخترتها بردو، وحبتها أكتر من الأول.. بس هكون بشخصيتى القويه اللى مبتتكسرش! هعرف اتعامل..

ـ رغم إنك عارف إنك كنت مجرد؟...

ـ رغم إنى عارف إنى كنت متنيل يا ستى! هى كانت أجمل حاجه فى حياتى و...

ـ كل شيء مقدر ومكتوب ومحدش يقدر يغير قدره، بس سؤالى واضح: لو بإرادتك تغير حاجه. لو؟!



- أيوه كنت هختارها. إرتحتى بقى؟ ممكن أكمل؟

تعطينى ابتسامة تحمل انتصارًا ما، ثم تقول:

- تبقى لسه بتحبها!

- لأ طبعًا.

- هههههه! طب كمل.

* * *

(حديثى مع نفسى)..

فى إحدى المرات، كانت تنظر إلىَّ بكل حب. تقول: لقد أعطيتك نظرات الحب ذات مرة. أتذكرها أم تناسيت؟ ومرات ومرات انتهى عطائى أيها الأبله! هذا ما أعلمه عن الحب. فماذا تريد؟.. أتريد أن أضحك؟ ها هى ضحكة أخرى. أتريد شيئًا آخر؟!



نسير معًا، سويًّا، لو رأيت خطواتها الناعمة كيف تبعث بالأماكن سحرًا خاصًّا! لو رأيت جمال تلك البقعة التى يشوبها القدم والعطن منذ سنن لا يعود لها شبابها سوى سير قدميها الملساء فوقها بنعومة! لا ينقص محبوبتى سوى وردة حمراء خلف أذنها وتظنها خرجت من جورب الأساطير القديمة! ملاك اختفى جناحاه عندما ظهر على سطح الأرض. كم أحبها تلك البريئة! ونحن معًا، لا أعبأ كثيرًا بالأشياء، أنظر إليها وتبادلنى نفس النظرات، ولكن أكثر أنوثة، أتمسك بيدها كالأطفال، ثم أقبل باطن كفها الحساس الأملس وكأنها طفلة رضيعة ولدت منذ دقائق على شفتى. لو ذهبت روحى الآن فيكفينى أنها آخر مخلوق رأته عيناى، أضع رأسها على صدرى كى تعلم أنها بمأمن تام، ذلك لو حدثت ثورة أخرى، سوف أتقبل الرصاص والخرطوش بصدرى لأحميها وأتقبل الموت بشجاعة.

قالت:

- عايزه مرتبك يكون ٥٠٠٠ جنيه فى الشهر علشان أصرف براحتى!

- هههههه حاضر.

- لأ، عيزاهم ٧٠٠٠ جنيه علشان أفرتكها كلها.

- حاضر طبعًا.. يا سلام أوى أوى.. مش عايزه ١٠٠٠٠ جنيه؟!

تكمل بنفس الأسلوب الساحر الممتزج بطفولة حالمة:

ـ لأ، أنا مش طماعه، هما ٧٠٠٠ جنيه بس، زى يمنى صاحبتى، شفت جوزها محمد بيعمل إيه وبيقبض كام؟ جوزها محمد بيعمل كذا وكذا، هى مبتحبوش، بس قبلته علشان الفرح... و.. وانت فاكرها فرحانه! لا بالعكس. لا فرحانه بالفرح ولا بالعريس، فجأه لاقته شخص تانى خالص غير اللى عرفته..

أقول بضيق:

ـ عملت كده علشان تخزى العين يا ناصحه، علشان تبعد العين عنهم، يا ريتك زيها!

تقول بدهشة:

ـ الكلام ده كان قدامى، أمها اللى كانت بتموت فى محمد ودايمًا تنصفه عليها كرهته! بخيل يطلعلها قبل الزفه يشوفها! وده فال وحش للعروسه، ده غير إنهم اكتشفوا إنه عليه ديون قد كده، يمنى مابتحبش جوزها بس تقبلته.. و..

أقاطعها قائلًا:

يعنى هو وحش ولَّا حلو؟ كريم ولَّا بخيل؟ مش هتعرفى حاجه عنه أبدًا منها، وعنهم عمومًا، الواد ده أصلًا مبطيقوش! وخلينا فى حالنا يا آسيا. دعى الخلق للخالق.

تقول مدعية أنها طفلة فى الخامسة من عمرها:

ـ بس أنا عايزه أعمل زيهم!

ـ تعملى إيه؟!

تقول بحماس:

ـ نجيب فى فرحنا صور لينا واحنا أطفال لحد ما نكبر، زى ما عملوا كده فى فرحهم، وأكيد حبيبى أحسن منه وأحلى منه، معتزووة حبيبى أحسن من أى حد.

أقول بروتينية مللت منها كثيرًا:

ـ ربنا يخليكى ليا يا حبيبى.

تقول:

ـ ويخليك ليا.

* * *

يـوم أغبـر!..

بل هو أكثر الأيام ظلامًا على تلك المنطقة! ربما لو انطفأت أضواء الكرة الأرضية وغرقت فى الظلام، لكان مناسبًا لذلك الأمر!

يوم بحثنا عن شقة!

ولِمَ لا؟! ألم أحبها؟! ألم أذق طعم الحب؟! لم لا أضعه فى الطبق المناسب؟! طبق الزواج والارتباط الرسمى. لا أخفيك سرًّا، عندما حاولت أن أضمها إلى صدرى، تخلت عنى كالقطة التى التهمت أطفالها جوعًا، اتهمتنى بأنى كذا وكذا.. بالطبع كيف تتحمل مسؤولية(*) وأنا لم أقصد؟! وعندما أردت

(*) الشخص الشكاك يعتمد على إسقاط أخطائه وهفواته على غيره، وتحميلهم كامل المسؤولية، وأيضًا عدم الاعتراف بالجهل أو أي نقص فيه.

إثبات حسن نواياى الطيبة، تقدمت رابع الأيام كى لا أفقدها، وبصحبتى خالى العزيز وأخى.. هكذا.. بالطبع.. وكتبت قصة نهايتى بيدى! غير مستعد لتلك الخطوة، لكن ولكى لا أفقدها للأبد فعلت..

ـ يا عمى عايزين بنتك المصون.

ـ قدامك أد إيه يا بنى؟

ـ سنتين.

لو تكرر زلزال ١٩٩٢ مرة أخرى لكان مبررًا منطقيًّا لتخبط قدمى بعضها ببعض فى تلك اللحظات!.. لو قرر هتلر العودة إلى الحياة مرة أخرى، وشن حملاته لاحتلال العالم من جديد لكان أهون! لو حدث فيضان آخر يغمر البلاد، والنساء يولولن عبر الطرقات لانهيار منازلهن لكان أخف وطأة من ردة فعل ذويها الأعزاء! مط جدها شفتيه بالرفض، وينظر أبوها إلىَّ بغيظ! ماذا حدث؟! هل أخطأت فى شىء ما؟! يقول الجد بكل جدية وسخط، متناسيًا المرح الذى كان منذ لحظة الدخول فى الجد:

ـ مش ينفع.

ينطق خالى بكل هدوء، غير مستوعب، رغم ملامح التوتر التى ظهرت عليه منذ لحظات:

متنسوش إن معتز لوحده بعد باباه محدش واقف جمبو وهو لوحده.

قال أبوها وهو ينظر إليه بكل تحفز:

ـ بس ده ميناسبناش!

يقول خالى بعد أن انتابه توتر مفاجئ:

ـ إنتم أهله بردو وهو محتاج وقفتكم معاه!

تدمع حبيبتى، ألاحظ دمعتها بالفعل فى تلك اللحظات. لقد حدث أمر جلل سوف يدمر قدومى إلى أرضها! هناك عطب ما حدث بذلك الترس الذى أخذ مسار الشرعية الرسمية! يجب أن ينطق أحد ما بحل جذرى ينهى تلك الأزمة. أقول محاولًا إنقاذ ما يمكن إنقاذه، بعدما عجز الآخرون عن حله:

سنة ونص. كويس؟

يوجه أبوها نفس النظرات النارية إياها نحوى! لماذا لا تكمل على خالى، وهو رجل بالغ سوف يتقبل ذلك الأمر على الرحب والسعة؟! ربما هو يضغط على أسنانه بغيظ قائلًا:

ـ الكلام ده مينفعناش!

ويقبض على يده فى غيظ أكثر وأكثر..

ازداد الموقف تعقيدًا!

بموجب حديثى مع آسيا أقنعتنى، أبوها سوف يتقبل أى مدة تسمح بها قدراتى وإمكاناتى.

علىَّ الآن إنقاذ خالى العزيز الذى أتى هونًا وهو يطمح بمساعدتى ومساندتى، برغم من إجرائه لجراحة عاجلة كادت تمنعه بالتأكيد من المجىء ها هنا، إلا أنه لم يتوانَ عن الوقوف مع ابن أخته الذى يعتبره ولده منذ مولده، والذهاب إلى تلك المعركة! ونسى إحضار الدرع والقلنسوة الخاصة به!

خذلتنى آسيا!

خذلتنى بكل جدية! لا بد لنا من الاجتماع سويًا بعد الانتهاء من الإجراءات الرسمية لتلك الخطبة، ألومها ألف مرة. لقد قالت لى سابقًا قبل قدومى: (تقدم لخطبتى وسوف تجده مرحبًا، سوف يطرح بعض الأسئلة الاعتيادية: هل تملك وظيفةً؟ منزلًا؟ خذ مدتك، نحن نشترى رجلًا، وقالت وقالت..). اتضح لى فى تلك الأوقات، أن أباها فى ملكوت وهى فى ملكوت آخر تمامًا! انسَ كل ما مضى، تصرف كرجل بالغ رشيد الآن! يجب أن تجد حلًّا يجعلهم يبتسمون من جديد، رغم عدم استعدادك للقيام بتلك المهمة الشخصية! إلا أنك تستطيع القيام بها!.. حبها يدفعنى دفعًا إلى شىء مجهول مبهم أخشاه! وبالرغم من تلك الأحاسيس الداخلية، الآن أتقدم وأعدو، وأنتهب الأرض نهبًا نحو إرضائها بكل السبل! ولتعد الأفراح بالعزف، وليعد هتلر ليحتسى الشربات معنا! ولتخمد البراكين ونفترش السجاجيد الحمراء فوقها! هيا قل الحل، قل، انطق! لذلك سوف أحل مشكلة الحرب الدائرة فى تلك اللحظات لعقد الاتفاقية. قلت:

ـ سنة!

ينظرون إلى بعضهم البعض! يتشاورون فى صمت. ذكرونى بلجنة القضاء العالى وهم يتشاورون فيما بينهم! وهم الآن على أتم الاستعداد لإصدار قرار على ذلك المتهم الموضوع أمامهم وجواره أقاربه.

تختفى نظرات أبيها النارية نحو خالى ونحوى، ويحل بدلًا منها معالم الرضا والقبول، مصحوبين بابتسامة عريضة، لا ينقصها سوى الرتب على شاربه ولف أطرافه كالباشاوات!

موافقة.. موافقة.. الآن فقط أعلنوا الأفراح ودقوا الطبول، اليوم هو اليوم الأول لاستقبال الفرحة داخل منزلنا. قمنا بخطبة ابنتنا الكبرى!.. أفراح، زغاريد، هتافات!!.

تلك هى المرة الأولى التى أرى فيها معالم الفرحة السعادة على وجهها الصغير الطفولى!

نظرات ممتنة محبة تتأملنى، أنت أصدق رجل، أنت أجمل صدفة، أنت الحياة، أنا سعيدة! وذلك كل ما أتمنى! ليتها تدوم لآخر العمر، تحتضن إخوتها بنشوة فرح غامرة. كل شىء وارد حدوثه فى سنة ما دامت تجاورنى، تساندنى كفتاة ريفية أصيلة تتحلى بأخلاقيات المجتمع الحديث، تكوين نادر الوجود! أصبح لى وحدى! أنا لا أبالغ!

جوهرتى الثمينة! عندما تحب ينتابك شعور أنك اخترت النادر والثمين من بين ألوف البشر، عندما تحب تتغير الأكوان من حولك؛ فيقترب القمر، وتنهمر مياه البحيرات، وتزهر الورود بجميع الألوان التى صنعها الخالق. الآن فقط سوف أسير فى طريق الكفاح ولا أهتم. ولذلك سوف أضحى بنفسى، حتى لو جاورت ذلك البواب في الصباح، وقطعت تذاكر للعشاق بالأريكة الخلفية للسينما، حتى لو أمسكت بالأخشاب وعملت بالنجارة، وقطعتها بكل ود، كما قالت أختها سامية مسبقًا ليلًا:

أنا لها وهى لى! لن يفرقنا أحد، حتى لو كانت اتفاقية رثة اجتمع على آثارها عائلتى وعائلتها!..

اتفاق صار بينى وبين أبيها، بمشاركته ثمن المنزل (عش الزوجية المستقبلى) بدفعه نصف المبلغ، وعندما ينغلق الباب بينى وبينها (ابنته)، سوف أسعى لرد الدين كاملًا.

إذن كل شىء ممهد أمامى.

كل شىء ممهد كى أكون لها وتكون لى.

سوف أحطم الصخر، سوف أبحر لعوالم أخرى صعبة من أجلك أنت وحدك.

كم أحبكِ!

* * *

مع الزبونة، التى لا يعنينى اسمها، قالت باستنكار اعتدته، وزادها جمالًا غريبًا لاحظة للتو:

ـ إيه ده؟! إيه الكروته دى يا بنى؟! إزاى تروح تتأدم لواحده وانت ولا حاجه؟ ممعكش على الأقل شقه؟ هى فعلًا لو بتحبك كانت سامحت وعدت وصبرت لحد ما تعرف راسك من رجليك، وبعدين تقوم بالخطوه دى.

أجيب:

ـ حسيت إنى هفقدها!

ـ تقوم تضيع نفسك؟! الشاب اللى فى سنك لازم يعمل حاجتين لو فى الحاله دى، إما يسرق، أو يستلف ويداين، أو ياخد قرض، أو جمعيات ييجى بـ٤٠ ألف على الأقل.

ـ ههههههههه جربت موضوع السلفه وملقتش، وحاولت آخد قرض كمان، الجمعيات ملقتش، كانت بعد سنتين ٢٠ ألف، وسنه تانيه زيهم.. الخلاصه الجمعيات مش هتنفع.

تقاطع بضيق قائلة:

ـ إنت غلطان.. مكنش المفروض تـ...

أقاطعها فى ضيق مماثل:

ـ كنت أعمى! والحب مش مخلينى شايف أى حاجه غيرها، لدرجة إنى كان ممكن أضحى بحياتى علشانها! حب وصل لدرجه مش قادر أوصفها! هى كانت كل حياتى ووقتى، وبعدها، كل حاجه كانت بينا بشوفها فى الشارع مع اتنين بيحبوا بعض، على القنوات الفضائية، فى قصص الحب، روايات الحب، كل حاجه بتفكرنى بيها، بتألم واتوجع بهدوء، زى اللى بيسلخ دبيحه متينجه، بتحس الألم لكن ما بتنطقش! مكنتش متصور إنه هييجى اليوم اللى تعاقبنى فيه بفراقها عنى!

تنظر بنظرة متفهمة ذلك الأمر، تقطب حاجبيها فى تأثر، تعاود الربت على كتفى قائلة (معلش)، تغيرت ملامحها فجأة! كمن ينظر إلى مغفل ذهب لشراء قطار السكة الحديد! كانت تقول: أنت لا تحتاج لمواساة من أحد، لذلك قالت بجدية:

ـ طب كمل.

* * *





(حديثى مع نفسى)

الحكايه عميقه قوى!..

أعمق من إنها ممكن تتوصف وتتحكى لبنى آدمين.

متحكيش أسرار علاقة محدش حاسسها وعارفها غيرك.

تقول آسيا:

ـ من أنت؟! كيف اقتحمت أسوار حياتي فجأة؟!

أقول أنا:

ـ أبعد تلك المدة الطويلة تتساءلين؟! أخشى ما أخشاه لو قطعت محادثتك يومًا أو يومين، تنسيني وكأني لم أكن! ورغم هذا الأمر، أنا الحب والعشق، أنا الأمن والأمان، أنا الحياة والأبدية!

تقول آسيا:

ـ لا أحب الأبدية!.

قالت آسيا:

ـ متسرق بنك!

ـ أسرق إيه؟!

تجيب ببساطة:

ـ إسرق بنك.. إعمل زى الناس اللى سرقوا عربية نقل الفلوس فى الصحرا وشطبوها. ثبتوا السواق، بس مأزوش حد وأخدوا الفلوس ومشيوا.

ـ هههههههه إنتى بتهرجى! صح؟!

ـ يا سلام! أنا مش عايزه غير ٣٠٠٠٠٠ ألف بس.. نجيب شقه و..

ـ فكرك أنا لو سرقت إنتى هتكونى راضيه؟!.

ـ الفلوس تخلينى راضيه!. هقول زى ما بتقول.. تنيم ضميرنا شويتين وبعدين هننبسط قدام متخفش.

يساورنى شعور طفيف أنها تقصد ما تقول فعلًا! هل تتخلى عن مبادئها؟ هل تقصد فعلًا ما عنيت؟! هل تريديني بالفعل أن أسرق من أجلها؟! بنك! هكذا كان معنا شيطان، يحدثنى ويقنعنى بالأمر! مال عام.. الدولة تحصلت عليه من عرق المواطن الغلبان و.. و.. لن يدرى أحد ماذا أو كم

سرق من العربة. في البنك المركزي، مليء بـ.. ! اللعنة على تلك الأفكار! هل تريدها؟! يجب أن تسرق كي تحقق المطلوب منك على أكمل وجه! نفضت غبار تلك الأفكار الشيطانية من رأسى! هكذا يحلل الخطأ دائمًا فاعلوه. ما هو أقرب بنك جوارى؟! تلك هى الفرصة الوحيدة التى تبقت للربح خلال سنة! خلال تلك المدة التى أعطونى إياها! هي أم السجن؟ قلت بنبرة يشوبها قليل من نترات السخرية:

ـ لو الموضوع بجد تقبلى؟

ـ لالالالالالالا طبعًا وإياك تعرفنى!.. إعملها من ورايا وانا مش هحس هههههه.

ـ يا سلام!

ـ لا أنا بتكلم جد.. لو عملتها مش هعرفك.. إعملها من غير ما تعرفنى.. من ورايا كده وكده، ولو عرفت هبقى اريح ضميرى بقرشين هههههه.

جميع الأفكار السوداوية مطروحة أمامى للفوز بها.

ولكني لن أسرق بالنهاية حقًّا!

* * *

نجاح آخر فى مجال الصحافة يضاف إلى الملف الخاص بى.. ويا للشرف! سوف تفرح، وتغمرنى نشوتها الصادقة.. هى طفلتى.. وأنا كل شىء لها.. أنا ملكها وهى ملكى مؤقتًا!

تقول آسيا:

ـ ألف مبروك يا حبيبى.

ـ ربنا يخليكى ليا يا حبيبتى.. إنتى السبب بعد ربنا سبحانه وتعالى.. لولاكى مكنتش هكون اللى أنا فيه دلوقتى.

ـ آه بس نجاحك شهره بس.. مفيش مقابل مادى محترم.. يا خساره!.

ـ يعنى إيه؟!

ـ فكك.. أنا أهملت فى نفسى وشغلى!.. الناس كلها بيقولوا عليا إنتى فين إنتى فين؟.. أنا ضيعت نفسى!

ـ آسيا.. أنا استثمارك والكل عارف.. وده يكفيكى.. إنتى ناجحه ونجاحك لسه مستمر..

ـ أيوه بس البنت اللى كنت بديله ليها.. بتقول عليا كذا وكذا.. بتقول عليا الكومبارس بتاعتها.. جابها بديله ليا.. أنا مجرد كومبارس.

ـ متقوليش كده يا حبيبتى.. إنتى أحسن منها.. وموهبتك أحسن.

بالأخير.. (نكدت، عكننت).. أفسدت نشوة الفرح بانتقادى وانتقاد تكاسلى، وعدّت أخطائى عدًّا، خربت معالم الفرح التى كانت تغمرنى بذلك الإنجاز الذى قمت به توًّا من أجلها ومن أجل سعادتها. فى وقت قياسى حققت فيه نجاحًا ملحوظًا.. لم يتوقعه أحد!

من أجل إسعادها، من أجل أن تشعر بالفخر، أنا لها وهى لى، نحن روح واحدة اندمجت فى جسد واحد، وأنا لم أكن أريد سوى رؤية الفرحة فى عينها فقط، وذلك ما كان يكفينى ولم تعلم! ولا تعلم ولا تدرك شيئًا عن الحب والمحب الحقيقى، لقد اعتادت أصحاب الألف وجه، ولم تعتد.. لم أرها طفلة مثلما كنت دومًا أراها.. والآن اختفت الغشاوة، وأصبحت أرى حقيقتها.

لم أر سوى أنانية.. ولم أعتنِ.. كنت أحبها.. أحبها كثيرًا!

* * *

تقاطعنى الزبونة مرة أخرى:

ـ إنت عبيط يا بنى؟!

أقول بدهشة:

ـ ليه بتقولى كده؟!

ـ مطز فيها معلش بقى! إزاى تبقى لسه محقق نجاح وتسبها تعكنن عليك؟! المشكله من عندك لإنك مبقتش عارف تسيطر عليها زى ما كانت العلاقة فى بدايتها!

ـ هى كانت معذوره ساعتها! أو ده كان تفكيرى ساعتها، هى مش لاقيه شغل وأنا بحقق نجاح.

ـ متلتمسش ليها عذر! كده بتغير منك وش يا محترم. إزاى مفهمتش كده من الأول؟

ـ اللى بيحب حد لازم يلتمسلو ألف عذر وعذر، حتى بص الهيستورى اللى بينا على الفيس بوك!

أخرج هاتفى، أبحث عن التواريخ السابقة.

صور حفلات تكريمى، يزينها بالأسفل تعليقها (ألف مبروووووووووك ربنا يخليك ليا وتنجح أكتر وأكتر).

ـ كانت بتبقى فرحانى لما كنت بنجح، وأديكى شوفتى بنفسك اهو!

بلكنة ساخرة قالت:

ـ مضحكنيش أرجوك.. اللى بيفرح لحد بيفرح للآخر، كانت تسيبك تفرح فى اللحظات دى على الأقل.. فى المكالمه.. والمكالمه التانيه تنكد عادى؟!

ـ هى معذوره!

تقول بغضب:

ـ أو مش حاسه إنها تملك فيك حاجه! فحساك غريب وبتجاملك.. معتز لازم تفهم إنها كانت بتعمل الحاجات دى مش بدافع الحب، كانت بتعملو كتقضية واجب مش أكتر، أو أحسن من الفراغ و....

تقاطع حديثنا..

زبونة أخرى تدخل وكأنها أحد المخبرين القدامى المتخفين داخل بالطو سميك. رقبتها دُفنت داخل أمعائها. كيف! لست أدرى! هى أقرب للمفتش كرومبو! وهو نوع آخر من الزبائن المتخفين فى زي سيدة، تبحث فى كل شىء: البراويز .. التحف.. الأدوات المنزلية..

تتفحصها كتفحص مندوب التأمين الصحى عند قدومه فجأة لإحدى المستشفيات المهملة الحكومية.

تمسك إحدى الزجاجات، تتفحصها. تقول بكل غطرسة:

ـ بكام دى؟!

أقف منتصبًا باحترام، وأحضر لها زجاجة أخرى بلون مختلف قائلًا:

ـ بـ ٢٠ بس.. في منها ألوان زى الأحمر والأصفر والأزرق.

تنظر إلىَّ بكل تحفز! يسقط فمها وكأنها فى حالة ذهول! كأننى سببتها

وفى انتظار صفعة على خدى الأيسر قائلة كيف تجرؤ؟!

تقول:

ـ ليه؟؟؟!.. هى ١٠ حلوه عليها.

أقول بلغة البائعين:

ـ كل زجاجه يا فندم وليها سعرها.. واللى معاكى بـ ٢٠.. وخلى عنك خالص.

الآن كشفت هويتها الحقيقية.. هى إحدى بنات الملك فاروق إذن! بنفس النظرات، وعدم الاكتراث، والتعالى الملكية والغرور. تقول بكل فخر:

حاجتكم غاليه!

أقول ببرود مصطنع:

ـ إسألى عن القزايز دى بره.

قاطعتنى فى برود آخر وكأنها أحد رجال المخابرات العامة المتخفين ليلًا:

ـ لأ مش عايزاها.

ورمتها..

وضعتها مع التحف، وأبعدتها عن شقيقاتها بمنتهى القسوة! أى مكان يعبر عن غضبها! هكذا انتقمت منى ومن الدنيا، وسوف تخرج فى عزة، سوف تعلن الهدنة المؤقتة فور مغادرتها الآن، سوف تخبر القوم أنه لا توجد خسائر، سوف تخبر السائرين أنه بائع يبيع بسعر غالى الثمن؛ فلا تقربوه، ويلكم لو اقتربتم! سوف أحرقكم جميعًا! سوف أخرج أحشاءكم



بوحشية.. أتفهمون! و... نظرت لها الزبونة الجالسة جوارى بضيق؛ تعبيرًا عن اشمئزازها قائلة:

ـ سيبك منها دى ست معفنه!.. كمل كمل.

أقول متناسيًا كل ما فات:

ـ إحنا كنا وقفنا فين؟

* * *

من هو (عنترة بن شداد)؟ يقال إنه أحب (عبلة) حتى أحضر لها بدافع الحب مائة من النوق الحمر. لم يكتفِ بذلك فقط. فقد غمرها بشِعره الوردى، رغم قسوة بشرته، غمرها بقوته، رغم طفولته أمامها! إنه الحب الذى يعيش طويلًا. الحب الذى يعيش داخل مطر الغزل والكلمات الحانية. وها قد مات عنترة، رغم حبه، وماتت عبلة! رغم تضحيتها بالزواج من عبد أسود، وعاش حبهما، لولا أنه مات هو الآخر ودُفن داخل قبرها.. لكنه عاش!).

إلى (هايبر وان) حيث لا يوجد مكان نضع فيه أقدامنا.. الأثاث، العروض الخاصة، الأدوات المنزلية، المكتبات والصحف التى أهوى والتى أمتهن، نبحث عن مقالاتى فى المكتبات المعروضة هنا وهناك، نذهب لنأكل أخيرًا، أنظر إليها بكل حب فطرى ونحن نتناول وجبة الطعام.. كم أنتِ جميلة! كم أنتِ صغيرة فى نظرى! طفلتى الحسناء.. هل يأتى يوم ولا أراكِ مجددًا! لا تحرمنى يا الله من رؤيتها، فأنا أريدها زوجة لى فى الجنة، زوجة صالحة.

أقول:

- أنا عايزك زوجتى فى الجنه..

لا أدرى لماذا اندفعت وبحت بما كان يكمن داخلى من أحاسيس خاصة لا يصح أن يعلمها أحد حتى هى!!

غريبة فعلًا ردة فعلها الأخيرة! تنظر بتعاطف، بأسلوب مصطنع، تحنى حاجبيها في تأثر وكأنى قلت توًّا لقد حدث ومات ذلك القريب بعد معاناة مع المرض!!

بتأثر واضح وبنبرة تعاطف مطت شفتيها قائلة:

- يا حبيبى.

أقول أنا:

ـ نفسى متنفارقش أبدًا.

لم تبادلنى تلك المرة رد فعل يريح قلبى من الشك..

لم أشك بها بالطبع، بل أشك فى أنها لم تعد تحبنى مثلما كانت!

أنا ها هنا كى أملأ فراغًا فقط وأتقبل!!!

قالت بآلية:

ـ يلَّا ناكل.

أصمت قليلًا، أراقب نظرات عينيها التى انصبت فقط على الطعام ونهبه نهبًا! قلت بهدوء:

ـ يلَّا.

بعدما فرغت فى سرعة.. لا بد أن أنهى وجبتى وأطعمها فى فمها أمام أعين الناس الحاسدة!

هنالك امرأة تنظر إلى زوجها في مقت.. وهى تراقبنا!

كأنها تقول: بينما يطعمها فى فمها.. زوجى لم يفعلها!.. زوجى غبى!.. زوجى أنانى!

أنا أكرهكما!!

ـ هتاكل منى دى.

تمد لى قطعة من اللحم الصغير.

أبعدها على الفور قائلًا:

ـ حبيبتى والله شبعت.. أنا حتى لسه شارب ميه.

ـ علشان خاطرى..

ـ يا حبيبتى صدقينى طالما شربت ميه مينفعش حاجه بعدها.

ليتها تفهم!..

ليتها تقدر.. ليتها تتعب وتحاول الولوج داخل أوردتى كى تشعر، وتقدر، وتتفهمنى!!

تغضب!.. تتوقف عن الأكل!.. تنظر إلىَّ بكل صرامة!.. تلومنى بنظرات العناد! أقول:

ـ بطلتى تاكليى ليه طيب؟

ترد مثل الأطفال تمامًا:

ـ شبعت!.

أقول بكل استسلام:

ـ طب هاتى.

تفرح وتسعد، ثم تكمل، وفى الطريق، أحاول لمس يدها. أووه! لقد نسيت.. كنا داخل علبتها المفضلة! سيارتها الفارهة! تقودها مثلما كانت تقودنى فى تلك العلاقة!.. ألمس يدها؛ فتصرخ بعصبية عشوائية:

ـ متلمسسسسنيش وانا سايقه من فضلك!!

ـ طب إهدى فى إيه!.. ووطى صوتك!!

بنفس المستوى الصوتى المرتفع:

ـ معتز .. أرجوك لما اسوق إياك تلمس إيدى..

أخبط بيدى بكل قسوة أمامى! أكتم غيظى! كيف سمحت لها بفعل ذلك الأمر؟! كيف سمحت لها؟!.. ربما كنت على خطأ، ربما، ربما.. تهدأ، ثم تتحدث بعدما راجعت نفسها للحظات قالت:

ـ أنا آسفه بس متعملهاش تانى.

ـ ممكن توصلينى وبس!

ـ طيب متزعلش منى.. أنا غلطانه يا سيدى.

ـ الغلط مش عندك الغلط عندى..

ترمقنى بهدوء أنثوى وكأنها تقول: ألا تلاحظ أننى ملكة لا أخطئ ها هنا؟! وأنت ستغفر، شئت أم أبيت!! تتوقف أمام المحطة كى أمتطى منها أول سيرفيس محطم يصل بى إلى بيتى معززًا مكرمًا.. تمسك بيدى وتقول بخفوت:

ـ أنا آسفه!.

كم شعرت بذلك المسمار فى تلك اللحظات! أول مسمار أطرقته فى علاقتنا! لا، بل أول منشار ينخر فى تلك العلاقة ذهابًا وايابًا! قررت منذ دلوفى لباب غرفتى.. سوف أصارحها..

سوف أتركها.. لن أقبل أن أهان بذلك الشكل من امرأة! مهما بلغ حبها داخل قلبى! سوف أربط جأشى اليوم.. الهاتف يصرخ.. هى. ومن سواها! بعدما انقطعت عن الجنس الآخر مكتفيًا بها وحدها كنوع من أنواع الإخلاص الممل، وبعطائها القليل! هذا إذا كانت تعطى من الأصل! فكنت أكتفى بلا شىء على كل حال! وبعد غلق باب غرفتى، سوف تكون لى،

وسوف أخبرها عما فعلت. سوف أخبرها عن ذلك الجرح الذى سببته.. جرح كرامتى! وأخبرها أننى أنتوى تركها، وسوف أترك لها تحديد لقائنا الأخير. أضع الهاتف على أذنى وأسمعها تقول:

- بيبى.. وحشتنى.

بماذا أجيب؟! ما هو أنسب رد فى قائمة الردود البشرية المطروحة؟! مهلًا! «بيبى» جديدة على مسامعى! ليست نبرتها مطلقًا!.. مزاجها مرح اليوم، ربما حدثت صديقتها يمنى! ربما توغلا فى أحاديث وثرثرات إلى ما لا نهاية! اكتسبت على آثارها لكنتها، وأسلوبها التلقائى، الذى يحمل (دلع) فتاة تتمتع بالثراء المكتفى والرفاهية، وأسلوب السخرية! ربما خاضا ثرثرة سريعة عن علاقتنا! ربما نصحتها بشىء ما سوف أعرفه بعد لحظات قليلة! ربما ستتحدث الآن عن أحدث صيحة لهيئة المطبخ الحديث، أو الحقائب ذات الماركات العالمية إذن! أو ربما سوف تتحدث عن يمنى شخصيًّا، وعن ذكرياتهما الممتعة، وكيف كانت تعاملها كالأَمَةِ أمام صديقاتها؛ فلا تعطيها وزنها وقدرها أمام الجميع! فكثيرًا ما كانت تعتبر آسيا الممثلة الشهيرة وسيلة للتباهى أمام المقربين، أما أمامها، فتعتبرها لا شىء! وذلك ما كان يحزننى أكثر! ربما! لا، لن أخبرها أن نبرتها تشبه نبرة يمنى «مثلها الأعلى»! لن أخبرها أن نصائحها تشبه نصائح شقيقتها سامية. سامية قالت ذات مرة: هل ستأخذها منى؟! إنها أمى وأختى وكل ما لى! هل ستصحبانى معكما إلى السينما؟ هل؟هل؟! لطالما اعتقدت أنها المحرك الأساسى فى تلك العلاقة! ربما أخبرت آسيا ذات مرة، أن أختكِ خطر عليك! ربما أخبرتها هى الأخرى بهذا! سامية كانت تعلم نقاط قوة وضعف أختها الكبرى؛ فكانت تسعد كثيرًا عندما كانت آسيا تغير من لكنتها لتطابق لكنة وأسلوب شقيقتها الصغرى. كفى! لا مزيد من الظنون! هى الآن يمنى.. ويمنى

فقط! تحدثنى عما أخبرتها به يمنى عن حياتها مع زوجها العفن البخيل، الذى لا يتوانى عن قوله لأبويها: كيف أتيتما إلينا فى ذلك التوقيت بلا استئذان؟! ألم أشترِ ابنتكما برضاكما؟! وعما فعل زوجها بعد ليلة الزفاف مباشرة مع أمها، رغم علمى، لكن لا بأس من التكرار! كيف أغضبها! كيف أصبح على النقيض تمامًا! كيف خلع قناع الوداعة من أساريره وأبدله بزى خليل البخيل! هذا ليس مهمًّا بالمرة! لا بد من أن أصغى ولا أعلق. لا بد أن أمدح فى يمنى، رغم مقتى لها لأسباب خاصة لن أذكرها! ولأنها صديقتها «الأنتيم». المهم أن أستمع لها، حتى لو غفا جفناك ليلًا، ويحتاج جسدك للراحة العاجلة من أجل غد، لا بد أن تتحاشى كل هذا من أجل ثرثرتها! لا بد لا بد! فلا تلاحظ تعابير صوتى التى أنهكها الإرهاق. يود لو أن يستريح قليلًا، يود الراحة حبيبتى!

* * *

تقول آسيا:

ـ شغل.. دور على شغل.

ـ بدور وسألت عمى.. واحتمال كبير أقدم أوراقى فى وزارة الزراعة وأشتغل مكان بابا ـ الله يرحمه ـ أبناء عاملين.

وعدًا.. اعتبرته وعدًا. كيف ومتى؟! لا تعطِ وعدًا طالما لا تملك حق الوفاء به. هكذا أخبرنى والدها ذات يوم عندما أخبرته هو الآخر قبل الولوج بصحبة خالى وربط العلاقات الرسمية.. أخبرنى أنهم «صعايدة» الرجل كلمة.. لا تلتزم بكلمة أنت لا تستطيع القيام بها. هذا شأن رجال الصعيد بأكملهم.. «الرجل كلمة» فهمت؟!

فهمت. لذلك ما قلته لها عن الوظيفة نُقل بطريق أو بأخرى إلى أبيها.

ها ها ها!.. هكذا وعدت دون أن أدرى!!

* * *

تقاطعنى الزبونة قائلة بدهشة:

ـ معقوله!.. مكنش فيها حاجه حلوه؟!

ـ أنا هنا بشتكى.. يبقى لازم أكون ناقد.. أكيد فيه حاجه أو اتنين مقولتهمش، وأكيد كان فيه، بس بوظتها.

ـ ههههه! حاجه أو اتنين؟! كإنك بتتكلم بأسلوب طفل بيلوم طفله!.

قاطعت:

ـ وياريتنى ما عاملتها زى الأطفال لإنها فعلًا منقاده.. وده اللى بوظ علاقتنا.

ـ أكيد لازم تبقى منقاده!.. مش عايشه مع ٩ إخوات ومع أهلها!.. عايز منها إيه؟!

أقول بضيق:

ـ وأنا إيه؟ فى حياتها بعمل إيه؟!.. أنا كل حاجه فى حياتها!.

ـ أكيد طبعًا كل واحد بيرتبط بشخص بيكملوا حياته والجزء الناقص فيه.. بس هى مش وحشه للدرجه دى! أو وحشه بس انت مخدتش بالك واستمريت فى العلاقة بمزاجك!

ـ للحظات بتخيلك بتسخرى منى وقاصده!

ـ خدت بالك من سخريتى ومخدتش بالك من معاملتها؟! غريبه دى!

ـ هتسبينى أكمل ولَّا.. ؟

ـ طب كمل.. شكلك كنت عايز تكمل...

ـ الكلام ولَّا العلاقه؟

ـ هههههههههه.

نظرت إليها بضيق يشوبه الغضب والشك! أرأيت تلك الملامح من قبل؟! عندما أنظر إليها يخيل إلىَّ بأننى كنت أراها منذ مولدى ولا أعلم! وجهها الآن أصبح مألوفًا، ولكنى لا زلت أجهلها ولا أعلم من هى حقًّا! لكنها تود تضميد الجراح. هذا ما أشعر به وأدركه. جيدة فى الإصغاء، تتوق لإيجاد الحلول وتحليل المواقف، فلنكمل ولنترك رغبتنا فى معرفة هويتها، الرغبة فى البوح حاليًا مسيطرة على كيانى، ولأكمل قصتى، وأتخطى استفزازها المتكرر!

تلك الفتاة تستفزنى كثيرًا! أضغط على أسنانى فى غيظ! وددت لو دككت عنقها!

ولكن ليس الآن!.

(حديثى مع نفسى)..

أصعب حاجه لما تبقى ساكت فى الوقت اللى كان فيه لازم تتكلم!
الحكايه إنك غلطت من البدايه... والغلط بينهى أى مجال للكلام!.

عندما تقوم بزيارة أحد الأماكن التى كانت تجمعكما سويًا، لن ترى سوى مكان مهجور وقاحل، ستشعر وكأن عمرها مائة عام، وعند جلوسك على الطاولة، ستظن أن الأتربة لا تزال على سطحها منذ آخر زيارة كانت تجمعكما سويًا، منذ أن هجرك ذلك الحبيب. ذلك المكان يمثل ذكرى لأحدهما.. ذكرى لك!



أميرتى الحسناء، أحبها كثيرًا، لا أريد سواها، رغم العيوب، رغم شعورها بالنقص المستمر، رغم النكد الذى اعتادته ـ وهى كذلك ـ جميع تلك الأشياء مقبولة ولا بأس.

إلى أن قامت بتغيير صورة الصفحة الشخصية الخاصة بها!.. لفتاة تجلس وحيدة على شاطئ هادئ تكتب، أشعر بالوحدة! كيف؟! ماذا؟! من أنا؟! وأين موقعى من الإعراب إذن فى حياتها العريضة؟! أين موضعى كنصف آخر مكمل لنصفها الآخر؟! أين أنا فى تلك الصورة؟! هل أنا شاطئها المتخفى داخل المال؟! لست هنا!.. لست هنا!..

تذكرت الآن مشهد «أحمد حلمى» الذى تعلمونه بفيلم «آسف على الإزعاج».. عندما أمسكت أمه بالهاتف، وقال لها بذهول هادئ:

ـ فين هيا.. مش هنا.. ولا هنا؟!

* * *

كأنها آسيا تقول وتردد:

(ألست أنت من بدأ بالفراق أولًا؟! سوف تندم كثيرًا لفعلتك!).

(سوف أعذبك عذابًا مؤلمًا بحق!).

(بفضلك أشعر بالوحدة! لا أحد يفهمنى ولا أنت أيضًا! أكره إخوتى وأبوىَّ وكل شىء!).

(سوف أنتقم منك بكل وداعة ويسر، لن تشعر بموتك إلا بعد صعود روحك إلى السماء!).

(برج العقرب سوف يجعلك تقع فى براثنه، ويمتص دماءك إلى آخر قطرة، ثم يتركك عظامًا نَخِرةً حتى من النخاع، لا تصلح حتى طعامًا لأحد الكلاب الجائعة!).

وضعت الهاتف على أذنى بكل غضب قائلًا:

ـ هو أنا فين فى صفحتك الشخصية؟!

تقول بكل براءة:

ـ فين ازاى يعنى؟

بنفس العصبية أجيب:

ـ هو أنا إيه وضعى فى حياتك؟

تصمت ثم ترد، ثم تجيب بنبرة حذرة:

ـ خطيبى! مش فهماك! بتسأل ليه؟

أقول:

ـ أومال مش باين ليه على بروفيلك؟.. هو أنا لسه ماظهرتش فى حياتك ولَّا لسه؟!.. الفيلم ابتدى يا ماما واحنا فى نص الفيلم!

ـ دى حريه شخصيه وصفحتى الشخصيه وأنا حره فيها.

تغيرت النبرة بصوت شقيقتها:

ـ فى إيه يا معتز؟!.. إيه اللى حصل؟!

ـ آه ساميه!.. إسأليها..

تقول سامية:

ـ أسألها إيه يا معتز؟! صفحتها الشخصيه وهى حره فيها تكتب اللى هى عايزاه.

ـ طب وأنا فين حضرتك؟.. مش المفروض تعتبرنى فى حياتها.. ولَّا أنا فى حياتها على ما تفرج؟!

ـ لأ مش كده خالص.. هو انت معاك حق.

ـ آه معايا حق.. لما الدنيا كلها تعرف إنها خطيبتى معادا هى.. الكل بقى عارف معتز بيحب آسيه حب أعمى.. وهى ولا هنا!.

ـ معلش يا معتز! أنا هقولها.. بس بردو هى حريه شخصيه.

وددت لو اخترقت السماعة بيدى وأمسكت شعراتها بكل قسوة! متخيلًا أفلام الكارتون! أنتِ السبب فى إفساد عقلها! لا تدركين شيئًا ألبتة عن أختك المصون، التى يتمايل عقلها فيما مضى وتفضيلها مصادقة الملاحدة! الطبقات الراقية التى سُرق من فوهة أدمغتها العقل! ساعدينى أيتها الحمقاء قبل سرقتها منى، لقد كانت فى ذلك العالم منذ زمن ولم أكن بالجوار، خطوت نحوها كى أرسى معالم الأمان والحب والعقل. لقد فعلت من أجلها ما لم أفعله مع غيرها مطلقًا.

وها أنتِ تبعدينها عنى وعنكم وعن العالم بمفاهيم حمقاء، عن الحرية الشخصية والتحرر!!

وبموافقتك وتأثيركِ على جمجمتها سوف تذهب عما قريب! وتصدق على شعورى، شعور الابتعاد قريبًا!

لا أتعجب الآن حينما تتقمص أدوار المحيطين بإتقان.

أقول بضيق:

ـ طب اديهانى.. ممكن؟!

تتبدل الأصوات، وتجيب آسيا بكل برود:

ـ أيوه!

ـ متزعليش أنا غلطان.. بس لازم أحس بوجودى فى حياتك.. إنتى مشفتيش أنا عملت إيه لما نزل الفيلم.. كنت فرحانلك كنت.. كنت.. كنت.

بنفس الطبقة الباردة:

ـ حصل خير.

ـ يعنى مش زعلانه؟

تقول:

ـ حصل خير!

أود تغيير نبرتها بأى طريقة ولم أفلح! لقد اقترفت جريمة كما قالت شقيقتها سامية!!

هل هما الآن مستعدتان لشن غارات على منزلى بالدبابات! أم تم إعلان الحكم النهائى علىَّ بالإعدام على يد عشماوى اللعين؟!

أقول:

ـ حبيبتى..

ـ نعم!

ـ يعنى مش عايزه تسامحينى رغم إنك غلطانه؟!

ـ أنا مش غلطانه من فضلك..

تبًّا!.. أكرهها كثيرًا عندما تحدثنى كأننى شخص غريب ولست أقرب الناس إلى قلبها! وددت لو دككت عنقها بكل عنف دموى، أو سلخت أظافرها كـ «نادية الجندى» فى أحد أشهر أفلامها للجاسوسية!

ماذا تقولين؟

أقول:

ـ إيه اللى يرضيكى دلوقتى؟

ـ عايزه أقفل.. ممكن؟

ـ طيب أكلمك كمان شويه..

ـ عايزه أقفل هنام..

ـ طيب هتصل بيكى بالليل.

ـ هشوف!.

ـ هتشوفى!.. طيب تمام سلام.

دون تمسك.. دون مناقشة.. دون رابطة تربطنا ببعضنا البعض، قالت بنفس النبرة الصارمة.. لا أدرى متى اقتنتها واقتبستها!

ـ سلام.

أيتها الـ....

أقسم أن..

لقد فازت فى تلك الجولة بكل تأكيد، أعطتنى «مانشت» كما قال «ممدوح فرج» من قبل!

صفعتنى! هل أنا على خطأ للتجاوز أم للاعتذار؟! على كل حال، العلاقة بدأت وأوشكت على الانهيار بالفعل.. بعد حذفى من الصورة لم يعد لى تأثير واضح. لقد عاودوا التأثير عليها مرة أخرى! لقد خرجت من سلطتى، وبدأت أنا فى الخضوع لها كأسير فى إحدى الحروب! أنا أحبها.. بل مغموس فى حبها من قمة رأسى لأخمص قدمىَّ كما قلت فى السابق «طفلتى.. الحسناء».

بالغد. قلت لها:

ـ هنروح فين النهارده؟

ـ تعالى نتسوق شويه.. عايزه أجيب الأطقم الصينى علشان اللى ناقصنى فى المطبخ دلوقتى الصينى. تعالى نروح الزمالك.

ـ وهو كذلك.. يلَّا بينا.

ليتنا لم نذهب!..

* * *

تحدث أصحاب السيارات القادمة أثناء قيادتها السيارة وقيادتى..

أترك الدنيا التى كانت تعبر من أمامنا وأشاهدها، أتأمل وجهها، انفعالاتها، ولا أعبأ كثيرًا بنظرات تلك السيدة فى السيارة الأخرى التى التهمتنى التهامًا! كيف تنظر إليها بكل هذا القدر من الحب يا مغفل! لا أعبأ، أصابعها التى تتمسك بعجلة القيادة وكأنها طفلة صغيرة، أعاود النظر إلى وجهها وكأننى أراه لأول مرة! أتساءل: هل سيأتى يوم ما ولا أراها مرة أخرى؟! هل أتشبع من رؤية وجهها؟ هل تملأ صورتها وجدانى ومخيلتى؟! تنظر نحوى ثم تبتسم. تقول بلكنة مصطنعة وكأنها تؤدى دورًا ثانويًّا فى إحدى المسرحيات الهزلية:

- بتبصلى كده ليه؟!

أبتسم، ثم أقول بشعور يتنابه حب وقلق لا مبرر له على الإطلاق:

- وحشاني!

- بس أنا معاك!!

أقول وكأنى رأيت مستقبلنا:

- بشبع منك! مش جايز يجرالى حاجه ومشوفكيش تانى؟!

(لن أراك مرة أخرى عن قريب! ولا أدرى لماذا ينتابنى ذلك الشعور أيتها العزيزة!).

تقول بنبرة تعاطف مللتها كثيرًا:

- يا حبيبى! بعد الشر عليك.. أنا مش هسيبك أبدًا.. على قلبك لحد ما تتكل.. هههههههه.

تمسك بيدى اليسرى، تفرك بأصبع الإبهام يدى، وكأن بصحبتها طفل رضيع يود الاطمئنان لوجود أمه بجواره وكأنها تطمئننى.. تقول بنبرة غامضة:

ـ مهو ده اللى مخوفنى.. معتز إنت بتحبنى أكتر منا بحبك!

لم أنطق، وهى الأخرى عاودت النظر إلى الطريق. لم ألتفت إليها، تسب أحد قائدى السيارات، تفور كفوران «الباجور» القديم ليشعل فوقه «حلة المحشى» الذى احترق.

أجلس صامتًا جوارها.. أمسك يدها بكل رقة قائلًا:

ـ إهدى يا حبيبتى مش كده..

قالت باستنكار وهى تبعد يدها بقسوة مماثلة:

ـ ممكن متقوليش إهدى دى تانى.. إهدى دى لوحدها تعصب، وماتمسكش إيدى وانا بسوووق قلتلك..

أضغط على أسنانى من الغيظ!.. ماذا أفعل أيتها البلهاء فى ذلك الموقف؟! ادهسى هذا وتلك، فلا معنى لوجود الناس أصلًا. أخشى أن يرتفع صوتى فيرتبك الأمر؛ فأتسبب بذلك فى حادثة؛ لطالما انتظرته وأنا بجوارها أقول بعصبية خفيضة:

ـ من واجبى يا ست العاقلين أقولك معلش واهدى.. واجبى أهديكى..

تعطينى ابتسامة مجاملة ليس لها أى معنى.. سرنا وتوقفنا.. أخيرًا توقفت السيارة أمام محلات الأثاث التى تحمل عواطف أمن ودفء عش الزوجية. عند قدومنا إلى محل بيع الأطقم الصينى، وبالداخل تذكرت فيلم «اللمبى» عندما جاء أحد الأشخاص منفردًا لحضور عزاء والد عم «بخ»: (مفيش

ركن ولا حته مشنفهاش فى المحل) بكل صراحة، أشفقت كثيرًا على صاحب ذلك المحل والعاملين والقائمين على مشروع محلات الأثاث أجمعها.. أخذنا أحد الموظفين كى يرشدنا، كالبقرة تدور حول المكان وتخبرنا بالأسعار..

وو.. وخرجنا.. يا ويلتى! جلسنا بالسيارة، داعبت أنفها الصغير بكل لطف:

(طق طق طق طق).

هناك أحد ما يطرق على زجاج السيارة من الجهة اليسرى، ويريد إفساد تلك اللحظة.

أنظر بكل براءة..

لأجد أمين شرطة ومعه اثنان من العساكر!

وبدلًا من الصدمة..

فى تلك الليلة كانت صدمتى مضاعفة!.

* * *

ـ (انزل).

مصدوم!..

أنا لم أفعل أى شىء حتى!!..

أخرجنى بكل احترام، وأخرج من جعبته دفترًا كبيرًا، قائلًا بكل صرامة:

ـ طلع بطاقتك وهات بطاقتها.

ـ يا باشا إحنا ناس محترمين وولاد ناس معلش سامحنا.

ـ محترمين أوى!.. فعل فاضح فى الطريق العام؟!

ـ يا باشا أنا شخصيه عامه وهى كمان.. أنا الصحفى معتز أدهم محمد.. وهى آسيا ممثله و...

قاطعنى ساخرًا:

ـ هههههه مهو البلاوى متجيش غير منكم يا محترمين.. يا للى مليتوا عقول الناس بالتفاهات وبتعملوا كده عادى!!

أمسك بطاقتى يتفحصها بكل عناية وكأننى لص هارب وهو يرمقنى بكل صرامة قائلًا:

وبطاقتها.. فين بطاقتها؟

ـ يا باشا خطيبتى والله خطيبتى.

فضيحة علنية أرسلها لى القدر.. على طبق من فضة!

جاء أحد العساكر بكل هدوء ليأخذنى ويبتعد عن المكان قليلًا:

ـ مينفعش اللى عملتوه.. إيه ده.. أنا هتوسطلك عند الباشا بس متعملش كده تانى.

ـ أنا معلمتش حاجه أصلًا!!

ـ متقولش كده لياخدك فى البوكس.. بص إدينى الشاى وملكش دعوه.

ـ أنظر إليها.. وأنا أخرج ورقة بـ ٢٠٠ جنيه مصرى!

إنها الأخيرة فى جعبتى. نظرت إليها، وأراقب كيف أن ملامحها جامدة لا

تتحرك! لا بد أنها سوف تقدر ما فعلت. لا بد أننا معًا ووارد حدوث مثل تلك الأمور. يحدث مع الجميع بالطبع. أجلس جوارها، تنطلق بالسيارة، قائلة بنبرة صارخة:

ـ ماش عايزه أعرفك تانى.. إطلع بره العربيه.

ـ نعم.

ـ ززززززززززى ما سمعععععععععععت مش عاااااااااااااااااااايزة اعررررررررررفك تاااااااااااااااااانى.

أمام محطة مترو الدقى.. أخرج، أخرج من حياتها تمامًا. هل كانت تلك القشة التى قصمت ظهر البعير؟! هل مات الشاة؟ كش مات. أخرج وتحطمت كل إفادتى معها.

علىَّ أن أطمس وجهى فى أقرب بالوعة! علىَّ أن أفيق!!

* * *

مع الزبونة...

مقاطعة لا بد منها. يجب أن تعتادوها:

ـ وانفصلتوا بعدها وش.. صح؟! أكيد انفصلتوا.. صح؟!. الموقف سخيف فعلًا بجد!.

أنظر اليها وقد أتعبنى الحديث بالفعل.. وقد مر على حديثنا قرابة الساعة والنصف تقريبًا أقول:

ـ لو صبر القاتل على المقتول كان مات لوحده.. اصبرى!.

تقول باستنكار.. وددت لو صرخت فى وجهى:

ـ عايزه أقول لفظ بس كاتمه بوقى! إزاى مسيتهاش بعد اللى حصل؟!

ـ أسيبها ازاى وأنا كنت غلطان؟

باستنكار واضح:

ـ غلطانيييين يا أستاذ.. الغلط مشترك ما بينكوا!

ـ بس الغلط الأكبر من عنـ..

تقاطع:

ـ عندكوا؟!.. إنت متأكد يا بنى إنها كانت بتحبك؟! إنت مرمغت نفسك فى علاقه بايظه أصلًا.. مكنتش بتحبك قد ما كانت بتحب نفسها يا بنى.

حقًّا! وعندما يتساءلون لا أجد أدنى إجابة!

ـ ااااايوه كانت بتحبنى!

نظرات التشكيك مطلة من عينيها كضباط المباحث! أخرجت هاتفها من حقيبتها تبحث عن شىء ما عبر صفحتها الشخصية بـ (الفيس بوك) تعربد فى لا شىء، أتطلع لا إراديًّا إلى شاشتها الصغيرة. قلت:

ـ فى حاجه؟!

تلتفت إلىَّ بسرعة كالتى انتبهت فجأة لوجودى! وقالت:

ـ لا أبدًا.. بس مستنيه صاحبتى تبعتلى «ماسدج».. بس كمل كمل.

أدخلته جحره الكامن بحقيبتها... تلتفت إلىَّ بكل اهتمام، ثم قالت بهدوء:

ـ كمل.

الشك يحاوطنى فى تلك اللحظات! هل من أرسلها إلى هنا هى آسيا؟! هل جاءت لتبحث عن طريقة ما لعودة المياه إلى مجاريها؟! هل جاءت كوسيط خير؟! لم أتطرق إلى ذلك الموضوع مطلقًا، فلا يصح الشك فى الخلق كلما حاورونى وتحلوا بالفضول، حتى لو كانت أرسلتها إلى هنا. أحمل رغبة عارمة فى البوح. بالنهاية، سوف تحكم، لا بد أن آسيا قد سردت ـ كعادتها ـ إلى كل من هب ودب سيرتنا! ليس غريبًا أن تحسد العلاقة وتتفتت وتنتهى.

جاءت لتعلم وجهة نظرى بالتأكيد. حسنًا.

ـ إحنا وقفنا فين؟ آه افتكرت..

* * *



(حديثى مع نفسى)..

(ساعات وانت مجروح بيدور جواك كلام كتير قوى... بيبقى نفسك تعاتب اللى عشمك بدوام العشرة مهما كانت! ومهما ازدادت شدتها! رغم إن مفيش حد يقدر يملى مكانه! إنساه زى ما نسيك! إنسى!)

(وجوه الناس متشابهة، فهى من نفس طينة الأرض، فلا يوجد آدمى فريد.. ولا نبتة لا تذبل وتموت. كلاهما من الأرض، وكل شىء فى طريقه إلى الزوال. فهل إن اختطفت ثمرة لن تجد سواها؟! وإن ذهب حبيب، ألن يأتى غيره؟! كلاهما من نفس الطينة التى تحوى الكثير من الموتى. وأنت عاجلًا أم آجلًا سوف تصبح مثلهم. ميتًا!).



موقف سخيف أن تنفصلا جراء ذلك الموقف السخيف!.. سخيف!.. سخيف بمعنى الحرفى.. لكننى حاولت مصالحتها بكل الطرق، حاولت تبرير شىء، حاولت وحاولت، ثم أكملنا، واستمرت العلاقة، وأقنعتها بكل السبل أننا بشر، كثيرًا ما نخطئ..

أستمع إليها بكل جدية، لاحظتها مرحة نوعًا ما:

ـ معتز.. متشتغل نجار.. أى حاجه.. سباك!.

أقول:

ـ بتقولى إيه؟!

ـ زى ما بقولك كده.. إنزل دور على شغل.

بملل واضح:

ـ إنتى عارفه إن الشغل محتاج شهاده وأنا بقالى مده فى الكليه.. والدكتور مستقصدنى!

ـ هو مفيش شغل من غير شهاده؟

من معى!.. أختها سامية كالعادة، أخذت منها الهاتف ربما:

ـ معتز إنت لازم تشتغل أى حاجه وتسيبك من مهنة الصحافه دى خالص.. وبطل تكتب دلوقتى.. الموضوع محتاج منك مجهود أكبر من كده!..

ـ حاضر هدور والله!

كنت أبحث بالفعل دون إخبارها بكل هذا.

إلى أن وصلت لمهنة كئيبة، مهينة بالفعل.. «سيلز» للأدوات الطبية!..

اللعنة!..

ماذا أفعل؟! المرتب ثابت كثبات روتينية العلاقة، لا يحركها انهيار السد العالى نفسه!..

الوجوه بائسة حزينة!.. مشكلات واجهتها بالعمل، لو علمت بها.. ماذا سوف تفعل برأيك؟!..

أنت السبب.. أنت المقصر.. أنت من وضعت نفسك فى ذلك الموقف اللعين.. أنت.. أنت. سنة واحدة.. مهلة واحدة وينتهى الأمر برمته! أجالس أباها ونحتسى الشاى الساخن عبر تلك الساحة الخضراء.. الأرض الزراعية التى يمتلكونها. أحاديث طويلة معقدة عن مغامراته الكثيرة التى لا تعد ولا تحصى! كيف كان مغامرًا فى الجيش!!

وكيف ضحك على ذلك اللواء المعتوه ذات مرة، وقذف نحوه ببرميل من الأسمنت من الطابق الرابع أو جير أو.. أو حقًا لا أتذكر! فمن كثرة مغامراته، لا تقدر الإمساك بذلك المشهد الساحق الذى يجعله يبتسم فى زهو وفخر! هو فخور بشبابه رغم بؤس وجهه! هو يشعر بشىء مفقود كبنيته!

أحدث نفسى فى تلك اللحظات قائلًا: إذا كنتِ تملكين حلًّا وسطًا، فأعطينى إياه ولا تتركينى وسط الأعماق باحثًا عن سبيل واحد للنجاة.

لقد أنقذتكِ مسبقًا من الغوص، فلا تتركينى وحيدًا. أخاف من حبكِ، أخاف من الغرق، أخاف أن أفيق ولا أجدك جوارى، بعدما كنت أستمتع بمغامراتى المتعددة. أتيتِ لتضعى قواعدك على سفينتى.. أتيتِ لتجعلى سفينتى ثقيلة بحملك.. فلا تبرح مكانها ولا تتحرك! والأدهى أنها كانت ترتضى! وحدى كنت أملأ دوارق الفراغ بحبك المسموم.. أكرهك.. وأحبك حقًّا! لست أدرى!! يبدو للكثيرين حبًّا. وأنا لا أراه هكذا! لا أرى شيئًا!.. عزيزتى، أغلقى ذلك الهاتف ولا تزعجينى مرة أخرى.. انزعى سلسلتك الحديدية حول رقبتى.. أريد استنشاق الهواء الندى.. أريد حياتى السابقة ولا أريدك! أحبك كثيرًا حد الثمالة، وأريد ذبحك كالبعير وأنتهى.. وتنتهى!!

* * *

الزبونة التى لا أعلم اسمها ولا أريد!.. تقول وهى تشرئب بعنقها:

ـ جايز مريضه!.

ـ مريضه؟!.. وبردو مينفعش أقولها كده حتى لو كنت ملاحظ الموضوع ده عليها .

قالت فى سرعة وكأنها تأكل الكلمات:

ـ أو أنانية وبتحب نفسها أكتر ما بتحبك وبعدين بمناسبة إيه؟..

و(أكملت بنبرتها العادية) «سورى» يعنى.. هى كانت من بقية أهلك ولَّا حاجه؟!.. هى تبقى مين أصلًا؟! مين دى اللى تعملها طرطور وتسامحها وتتحمل مسؤوليتها وكإنها واجب عليك؟!

ـ أنا ملاحظ إن كلامك فيه حاجه خفيه بترميه كل شويه.. بس مع

ذلك هتخطاها دلوقتى.. عمومًا أنا مكنتش طرطور أنا كنت بطاوعها فى الصح.. بسمع الكلام علشان فى الغالب بيكون صح!.. برج العقرب بيحب اللى يسمعلو وياخد بنصايحو.

ـ الملل!.. إنت مبتزهأش؟!.. فى واحد يستحمل كل الكلام ده ولسه باقى عليها ومستنيها تتغير وتتشقلب قدامك وتقولك هتغير علشانك؟!

ـ هههههههه القرد فى عين أمه.

ـ يا بنى إنت خلتها تركبك وتدلدل.. لازم تعمل كده؟!.

ـ إنتى لسه معرفتيش حاجه!.

ـ أووووووف! طب كمل.

* * *

قبل تلك الأحداث بسنة ونصف من التعارف، كنا على جنبات النيل، الذى يحوى مياه الشرب والصرف معًا! نتنسم الهواء المرتطم بمياه النيل المتعكر! نستند على أسوار ذلك الكورنيش.. تتحدث سامية قائلةً بهمس:

ـ معتز.. آسيا معجبه بيك.

ـ آه تمام!

تقول:

ـ بكلمك بجد.. إنت إيه؟!

ـ هى زميله وأخت وحاسس إنها بتفهمنى.

ـ يا معتز أنا شايفه إنكوا بتقربوا من بعض الفترة الأخيرة وهى اتعودت عليك.

أنظر إلى آسيا التى كانت تنظر ببراءة إلى النيل..

وكأنها فى انتظار قارب ما سوف يأتى بالتأكيد بعد لحظات!

أقول بنبرة منخفضة لسامية:

ـ أنا مش عارف حاسس بإيه بكل أمانه!

ـ حبها بس متشفقش عليها!.. دى نصيحة منى ليك.

ـ لو هرتبط بآسيا هرتبط علشان بحب مش علشان بشفق يا ساميه!!!.

ـ أيوه كده.. حبها وهى صدقنى بنت حلال.. هى مرت بظروف صعبه أوى إنت أكيد عارفها.

ـ حكتلى.

تبتسم فى سعادة.. أنظر إلى آسيا التى تبدو لا مبالية! إنها لا تدرى شيئًا مما يدور هنا، فنظرت إلينا قائلة:

ـ بتعملوا إيه؟!

قالت سامية بمرح:

ـ إنتى مالك!.. ده الأنتيم عايزه حاجه؟

تهمس فى أذنى مرة أخرى:

ـ حب مش تعاطف يا معتز!

نظرت إلى آسيا بكل حنان.. وابتسمت، كأنما أراها لأول مرة. تدركون ذلك الشعور جيدًا؟!

من هنا بدأت الرحلة!. شهور والاتصالات لا تنقطع.. كروت شحن تملأ جنبات غرفتى المسكينة!.. لو كان لها فم لقالت كفى وكف! ستتركك عاجلًا أم آجلًا. وعودها كاذبة.

كلماتها الحانية كاذبة! كل شىء كاذبة فيه!.. كاذبة! ألا أنا أيتها الغرفة إلا أنا. وأعوذ بالله من كلمة أنا! بالنسبه لها حالة خاصة وفريدة ونادرة! سوف تقدر هذا يومًا ما.

إلى أن يأتى ذلك اليوم. لا أسمح لها بشحن رصيدها مطلقًا.. أنا جئت كى أرسى قواعدى الخاصة، فلا أسمح لها بدفع قرش فى أى شيء. فما سبب وجودى إذن؟! رغم أنى، وفى أوقات مختلفة، لا أملك حقًّا نقود الشحن.. فأرمى ذلك الحمل عليها لتحدثنى بنقودها. ولسبب مجهول؛ يساورنى شعور أنها تحدثنى كى تملأ ذلك الفراغ الممتد فى حياتها الكئيبة!

فلتتحدث إذن إمام الإخوة والأخوات.. كى تقول بكل بإصرار: أنا أمتلك واحدًا.. فماذا أنتم تملكون؟! لا شىء.. لاشىء.. وااحبيباه! انظر يا أخى الصغير.. أتحدث مع خطيبى المستقبلى!!

انظرى يا أختاه كيف نمرح الآن! سوف أضحك وأفوز بحسدكن! ما المتعة فى الحياة إذن؟!

تضحك.. وتضحك.. تغيظ إحداهن.. أحاديث كثيرة قالتها لى فى السابق عن عمل أسود أغبر يجعل كل من يتقدمون لخطبتها يتراجعون! وقد كذبت تلك الأقوال بحديثها معى وقدومى لخطبتها. ولا يوجد مفر! يجب أن يزوجوها مثلما فعلوا مع «سمير صبرى» فى فيلم «البحث عن المتاعب». وتلك الفلاحة «عريس يا اماى عريس يا اباى طخو بس متعوروش يا بوى..» ومن السخرية أن تقولها لى فى إحدى المحادثات على سبيل السخرية

أيضا!.. ذلك ليس هامًّا. هنالك خطر أكبر يهدد تلك العلاقة الهشة! هى لا تثنى على أحد.. إلا أنا.. هى لا تحب أحدًا.. إلا أنا.. من أنا؟! حبيبها الوحيد المنتشى، صديقها المستمع، حبيبها الرقيق، رجلها القوى، الرجل الذى يقدر كل شىء، الرجل الذى يحتوى كل شىء. أتحب أحدًا سواى؟! حتى أبويها. تبًّا لهم أجمعين كما قالت! أبوها ذلك الوغد الذى لم يرحمها منذ طفولتها المليئة بالوحدة بعد فقدان الأم، ولا يُكِنُّ لها ذرة واحدة من الرحمة! لم تربها أمها مثل باقى الفتيات! هو السبب فى فقدان سمعها بالأذن اليسرى! هو السبب فى تدمير العلاقات المصرية مع باقى الدول المجاورة بفتنه المتعددة! هو السبب فى أزمة كوريا مع بلدان العالم! هو السبب فى تحطم الاقتصاد المصرى! بل هو المتسبب الأول فى انهيار الإمبراطورية النازية نفسها! لماذا لا تكرهه إذن؟! إلى الكارثة الأخرى التى سببها لها دون قصد عبر الهاتف تقول بكل جدية:

ـ أنا راكبنى قبيل!

ـ يعنى إيه قبيل؟!

ـ بابا اتعملو سحر اسود وأنا اللى دوست عليه.

ـ ههههههه يا راجل!

ـ إنت بتهزر.. من فضلك متهزرش فى الكلام ده.

لا بد أن أستمع..

لا مجال للسخرية هنا، وإلا سوف أتحول فى لمحة لشخص غريب.. تقول له بلكنة جدية «من فضلك».

كأنها قابلتنى صدفة كأحد زملاء الجامعة المجهولين!.. الخلاصة ألا أتحول من حبيب إلى غريب!

لذلك قلت بكل جدية:

ـ من إمتى الموضوع ده يا آسيا؟!

ـ ناس عملوا عمل محدش يعرف هما مين ولا فين ولا ازاى!.. المهم بابا كان المقصود بيه.

ـ تؤ تؤ تؤ... مين قالك الكلام ده؟!

تصمت.. تستعد لمفاجأتها القادمة:

ـ تقول عليا ازاى واحده مثقفه زيى تقول الكلام ده!.. بس الموضوع ده حقيقى فعلًا.. أنا اتعملى عمل زى الربط، والسحر موجود فى القرآن.. أنا مبجبش كلامى من الهوا.. العمل ده يبعد عنى العرسان وو.. ويصبهم بالنحس.

ـ طب ازاى أنا حبيتك وهخطبك؟!.. فكك ده كلام تخاريف!.. بقى واحده زيك بتقراها فى السنه ييجى أكتر من ١٠٠ كتاب تقول الكلام ده؟!

ـ مممم مش عارفه بقى!.. ومن فضلك متجبش سيرة الموضوع ده تانى معايا.

ـ هههههه طب اللى راكبك إسمو إيه؟!

بدهشة قالت:

ـ تانى هترجع تتريق؟!.. قبيل يا سيدى.

ـ طب لو راجل تطلعى؟

تصمت.. تزمجر، وتقول بعصبية زائدة قليلًا عن أنوثتها:

ـ قلتلك الموضوع ده متتكلمش فيه تانى بهزار.. أنا حذرتك!

ـ لأ هتكلم فيه بقى.. إيه يعنى؟! إنتى فاكرانى خايف؟!

صمتت.. قصت لى كيف جاءت إحدى الدجالات المحتالات ـ من وجهة نظرها ـ كى تكشف الطالع وتخرج الكامن «شمهورش بندورس» هيلا هوب انطق ما اسمك ومن أين أتيت؟ ولماذا هى أيها اللعين الوقح؟.. كيف أتيت من عالم الجان؟ قص رحلتك على مسامع الشيخة وأجب. يقول الجنى بعدما يحتل حنجرة الفتاة: أنا فلان ابن فلان ابن ملك الجان، هربت منذ صباى، أخذنى أحد الصبية فى حارة ضيقة كى يبدلنى القميص ليس أكثر. إنه نادم على مغادرة المملكة دون استئذان، ولن يغادر.. لن يغادر! وتظهر الحقيقة كاملة.. كيف صرخت الفتاة فى وجه أبيها؟! بل كيف أرجعت رأسها إلى الخلف مثل أفلام الرعب القديمة؟! تشاهدون ذلك الفيلم.. عندما أطلقت الشيخة المبروكة آيات القرآن الكريم على مسامعها.

سكون...

ـ آسيا رحتى فين؟!

تنهيدة غير مريحة!.. زمجرة!.. وكأنها قطة تمزق قطعة دجاج نيئة وهنالك قط يقترب منها؛ فتصدر ذلك العواء المعهود.. كى تعلن العقوبة لمن يقترب أو لمن يجرؤ!

أنفاسها متصاعدة.. أصوات مثل (هاااااااااااوزاااااخخخخ خخخخخخ مممممم اوووووم هاااااااااااااح هاااااااااااااااح تووووووووووهخخخخخخ)!

وكأنها تلهث بالفعل.

ـ آسيا.. ده وقت هزار؟! بطلى بقى!..

صوت معزة ضربها أحد الأطفال فصرخت وصرخت.. تعاود الركض

فى ذلك التراك.. آسيا هقفل. وكأنها لم تسمعنى.. لن أنكر. لقد اهتزت أوصالى قليلًا مع استمرارها فى أداء مشهد تمثيلى مستحيل إدراجه تحت عنوان: «يحدث بالفعل».. يمكن تصديق تلك الأفعال من مشاهدى «ريهام سعيد» السذج الذين لا يقرأون ولا يدرون شيئًا فى حياتهم سوى البصم على الأوراق الحكومية!.. لو كانوا يستمعون إليها فى تلك اللحظات لقاموا بالضحك الهيستيرى بالتأكيد!!

ولو كان «سعد أردش» على قيد الحياة، لصفق بكلتا كفيه حتى أدمى وجهها الصغير!

ما هذا الأداء الباهت؟! استغلت سذاجة وجهل أبيها لتؤدى ذلك الدور أمامه بعدما أدركت أنه يصدق ذلك الأمر كى يشعر بالذنب! كى تخبره بأنها عمله الأسود! كى تخبره أنها سوف تنتقم من إهانته لأمها الحبيبة وإبعادها عن أحضانها الدافئة! سوف تنتقم.. ولكن بأسلوبها الخاص. إنه ذلك العمل الخاص به، الذى دهسته عن غير عمد، المدفون هناك فى آخر أسوار الحديقة!.. وآخر هناك فى ـ المعذرة ـ الـ Wc، وآخر خلف النافذة. الخلاصة هناك عقدة دائمة.. وهناك انتقام ما دفين! وهكذا.. أدت دورها أمامهم.. هكذا تريد التكرار معى!.. ولمَ لا؟! ألم أقل أريدها لى؟! وها هى تعطينى إياها مع ذلك العفريت! وفى الغد اتصال كالعادة.. كعادة هؤلاء الذين يتلبسهم الجان، لا يدرون ماذا فعلوا فى تلك اللحظات! كانوا نائمين هناك فى مغارة ما! كانوا مستريحين، بينما ذلك الجن يلعب بأجسادهم! «ريهام سعيد» أعطت مفهومًا مزيفًا عن الجن! خسئت تلك الدجالة الإعلامية! لا لن يبعدنى عنها الجن ولا العفاريت. أنا من يتحمل كل هذا ويصبر، أنا من يحتويها بعد أبيها.. من يكون الأب والأخ والحبيب والعشيق سواى؟! لا أحد!..

أبله! أليس كذلك؟!

* * *

- (بكام دى)؟.

زبونة أخرى.. يهودية أخرى!.. تحب الفصال كحبها لزوجها.. ذلك إن كانت تحبه من الأساس!!

يبدو أن زوجها أعطاها سلفة ووصاية عشر عن البخل هى الأخرى! من نطقها لحروف السؤال تستشف كمَّ المعاناة التى تعانيها تلك الزوجة!.. كيف علمت؟! رأيت ذلك الخاتم بيدها اليسرى، وذلك الذى ختم على عينيها بطابع أسود أسفل جفنيها.. يبدو أن ذلك الرجل أشبعها مسؤولية جمة حتى أصبحت شيئًا أشبه بالمرأة!.. فتناست الاهتمام والعناية بزيها التقليدى، فأطفالها أولى بالكساء والرغد!.. تلك السيدة مضحية لأقصى درجة، فقد أهملت كل شىء عن الموضة، رغم صغر سنها، ربما أنستها المسؤولية كل هذا!... أدركهن عن بعد!.. المكافحات.. المساندات. قلت:

- بـ..

متسرع كعادتى! ألم تفهم اللعبة أيها الوغد؟!.. لا تعطهم الثمن الحقيقى لسلعتلك حتى لا يظنوا أنك ضاعفت المبلغ ويمكنهم الفصال بعدها كى يحصلوا عليها بالمبلغ الذى يريدونه وليس الذى تريده أنت فتخسر! النساء خبيثات! النساء يبدُنَّ ذكيات أكثر من اللازم!.. فيجب وضعهن فى مناصبهن الطبيعية! المخابرات العامة!. لا تعرض نفسك دفعة واحدة على إحداهن حتى لا تفقد قيمتك ويرخص ثمنك دفعة واحدة. لحظة.. «بس اتأكد من السعر!». تنظر إلى باقى المكان بنفس التعالى إياه السابق.. لذلك قلت بهدوء:

ـ بـ ٣٥ بس.

تفتح فمها فى تعجب! وتنظر إلىَّ بكل فزع! كالأمين فى قسم شرطة عندما يقع فى جعبته لص محترف يعرفه جيدًا ويود صفعه الآن! فقالت:

ـ هما ٢٥ حلوين!..

أتردد.. أصمت.. آخذها من يدها أضعها فى ذلك الكيس. أبتسم لها قائلًا:

ـ خلى بالك أنا مبعملش كده مع أى حد. بس علشان حضرتك زبونة محل.

تبتسم وتعطينى النقود، ثم تذهب منتصرة.

أنظر إلى الزبونة الدائمة التى جوارى قائلة:

ـ مش شايف إنك متلقش فى المهنه دى؟ المهنه دى عايزه واحد متودك ويعرف يضحك على الستات.. الستات بتحب اللى يضحك عليها لعلمك!

ـ ههههههه يا ريتنى عرفت أضحك عليها!.. آسيا كانت عايزانى أشتغل سباك أو نجار زى ما قالت أختها ههههههههه.

ـ مكنتش مقدراك صح.. معلش ربنا يعوضك باللى أحسن. متزعلش.

ـ كل شىء نصيب.. الحمد لله وأنا راضى.. بس الموضوع استنزفنى.. جاب آخرى!.

ـ ازاى؟!

ـ هحكيلك.

* * *



(حديثى مع نفسى)

سنة واحدة وينتهى الأمر بأكمله!

تمدح فى كثير من الرجال أمامى، حتى لتشعر أنك مجرد صبى أمامهم.
وعندما أشعر بالضجر! تقول بحنان: وهل من أحد يملأ عينى سواك؟!





أنا:

ـ هو انتى بتحبينى بجد؟!

ـ طبعًا يا بيبى!!

ـ يا خوفى!

* * *



فى تلك المرة شعرت وكأن إحساسى صادق بلا منازع، سوف يأتى يوم لن أبلغ منحنى منزلها مرة أخرى. شعور وإحساس تجاهلتهما وأنا أفتح باب سيارتها وهى تبتسم لى ابتسامة تعاطف! لا تتعجب. هى تفعل هذا مع الجميع. لكن أنا مختلف بالطبع.. ابتسامتها لى وحدى.. يدها تتلمس يدى.. المعذرة يدى تلمس يدها! اللعنة! لماذا أكون دائمًا أنا البادئ؟! لماذا لا أتركها تفعلها وحدها؟! لماذا لا تفعلها؟! اقول متسائلًا:

ـ بتحبينى؟

تجيب بشكل روتينى:

ـ طبعًا يا حبيبى.

لماذا أردد ذلك السؤال مرارًا وتكرارًا بلا كلل أو ملل؟! أشك بمصداقية حبها لى!

الشعور يزداد رويدًا رويدًا.. سوف أتركها.. أو تتركنى.. لا، سوف تكون هى.. سوف تفعلها أخيرًا كى تضعها أمام لوحاتها المنتصرة.. إنها تركت.. ولم تترك!.. بسبب غبى مغفل مثلى لم يقدر قوالب الذهب التى أمامه! هكذا تزداد ثقتها بنفسها أكثر. هكذا تستقبل العالم فى روما كقائدة وسفيرة للنوايا الحسنة! تلاشيت تلك الأحاسيس تمامًا.. وأنا أنظر الى

وجهها ولا أكف!.. أرتوى برؤيتها!.. تحتسيها عينى!.. أشبع منها!.. لن أراها يومًا ما! عسى أن يفرقنا الموت أو الانفصال.. أيهما أقرب! أتأمل نظراتها للطريق وكأنها تراه لأول مرة! قالت بكل ود:

- أمشى منين؟.. شوف الطريق كده.

تبًّا!

- خشى يمين.. لا لا خشى شمال..

اقتربت نحو مقدمة الكوبرى، فأحنت السيارة يمينًا ويسارًا.

- إنت غبببببببببى.. اسسسسسسكت خااااااااااالص!!.

- فى إيه؟!

قالت ولا تزال تتحلى بذلك القدر من الغضب:

- كنت هتودينااااااااااا فى داهيه!

- أنا غبى؟! بتشتمينى؟!

يرتفع صوتها كأنها لم ترَنى. تقول: (كنت هتودينا فى داهيه!).. (أنا غلطانه أصلًا إنى بسمع كلامك!).

- حلو.. جميل.. أنا غلطان أساسًا إنى كملت معاكى لحد هنا. نزلينى عند الموقف لو سمحتى أو نزلينى هنا.

تصمت خيفة من صوتى المرتفع!

تتوقف بالسيارة.. وقبل أن أخرج، أمسكت كتفى، أنظر إليها بغضب!!

قالت بخفوت:

- متسبنيش.. أنا آسفه.. حقك عليا.. أنا غلطانه إن صوتى على عليك.. بس انت عارف إنى بتوتر!

- تقومى معليه صوتك وتشتمى؟!

- آسفه صدقنى آسفه متزعلش..

تملس وجهى بحنان غير مريح! تتلمس جبهتى بيدها الناعمة، وتهبط وتنزع منظارى الطبى قائلة بحنان:

- تصدق شكلك أحلى من غير النضارة! عايزين نعملك عملية الليزك قريب.

صامت أراقب شفتيها الناعمتين وهى تحاول أن تصبح أنثى، تتحدث برقة، تمسك بيدى اليسرى قائلة:

- لسه زعلان؟

- شوفلنا مكان ناكل فيه..

- أيوه بقى هو ده الكلام.. تحب ناكل فين يا حبيبى؟!

لم أجد مفرًّا إلا أن أسامحها وأتخطى ما حدث، وأشبك يدى بيدها بعد مرور بعض الوقت من الغضب وكأن لم تنشب بيننا حرب منذ دقائق!

قالت:

- دى أحلى حاجه فى علاقتنا.

- اللى هى إيه؟!

- مبنسبش بعض زعلانين.. لازم نتصالح.. بزمتك مش كده علاقتنا ليها طعم؟!

ـ آه. آه ليها طعم.. بس من غير نكد أحلى.

تبتسم كالأطفال.. تنظر إلَيَّ بكل تعاطف. لا أدرى من أين أتى ذلك التعبير؟! وقد كان.

أحبها.. لا أتخيل فكرة ابتعادها عن ذاتى! هى نصفى الآخر مهما بلغت عيوبها! هى لى وأنا لها، وسوف نفترق قريبًا.

سوف تبتعد السفن عن المرسى، وتترك بضاعتها على الشاطئ بلا حراك، لن يستفد أحد بها، ولن تصلح لأحد! إنه الحب. سنتركه هناك ينتظر أن يلتقطه أحد المشاة فيعبر إلى الوطن. أى وطن.. المهم الاستقرار. هى وطنى، وهى شاطئى، وهى منزلى، وهى كل ما لى..

أحبها بكل ما فيها.

قالت:

ـ لو احنا بعدنا عن بعض.. وشفتنى صدفه هتعمل إيه؟.

ـ ولا كأنى أعرفك!.

صمت.. صمت.

أكمل أنا:

ـ انقطع النصيب وكل واحد يروح لحاله.

ـ يعنى مينفعش نكون أصدقاء؟!

ـ نعم يختى!.. أصدقاء!.. إزاى دى أفهم؟!

تقول:

ـ عادى يا معتز فى ناس بيسيبوا بعض وبيبقوا أصدقاء عادى.. إنت

مشفتش الممثل فلان الفلانى لما انفصل عن مراته بيقولوا فى بعض إيه.. بيحترموا بعض.. و ووبيتصوروا مع بعض عادى.

أجيب بكل استنكار:

ـ بيبقى عايزين يدوا بعض بالجزم وانتى الصادقه.. الناس دى منافقه بطبعها.. إوعى تكونى مصدقة إنهم هيطلعوا فى الإعلام يسبوا ويشتموا فى بعض لا لا.. كل واحد وليه معجبيه يا ماما.. كل واحد مش عايز يخسر جمهوره.. وعايز يبقى قدوه علشان كده بينفدوا منها بكلامهم المحترم عن بعض.. لكن لو العلاقه مسخت وتطورت أكتر، بيبقى الغرض منها الرغبة، ولو الموضوع قلب جد يرجع يقول أقسم بالله ما أولادى! وبكره تعرفوا الحقيقه. المجتمع منافق بطبعه يا ماما!

ـ هههههههههه.. إنت أخدت الموضوع جد ليه كده؟!.

ـ لإنه مستحيل أعاملك كصديقه بعد ما بقيتى حبيبه يا آسيا لو سبتك!. هى ينفع الملكه تنزل لمرتبة الخدم مرة تانيه؟! الملكة خلاص لبست التاج.. تاج قلبى.. واللى عايز يتخلى عنه يتنفى بره المملكه.

صمت.. وتصمت ثم تقول فى عناد:

ـ أنا ليا صحاب كده.. وبقوا...

مقاطعًا:

ـ متخلفين مخابيل!.. كل واحد انفصل عن التانى يبقى خلاص امسح بأستيكه.. مش لبعض.. لو حصل هلغيكى من حياتى تمامًا!

هل سمع أحد جملتها الأخيرة التى نطقت؟ هل سمعتم جملتها الأخيرة التى تقول:

- متيجى نبعد عن بعض فتره ونشوف هنوحش بعض ولّا لأ!

وهنا تتبدل الأصوات مرة أخرى، لأستمع إلى صوت سامية شقيقتها بعدما أعطتها الهاتف لتقول:

- أيوه يا معتز.. ما تبعدوا عن بعض شويه.. أسبوع إتنين.. شهر.. إوحشوا بعض.. ووفروا كروت الشحن دى.

ما شأنكِ أنتِ؟ لماذا أعطتها الإذن للحديث؟ كيف لكِ أن تتدخلى عبر أحاديثنا السرية تلك؟!

تقول بكل مرح:

- أيوه يا معتز.. لازم توحشوا بعض شويه.. أنا بعمل كده مع عبد الرحيم.. وبنرجع نتصل من تانى.. عادى يعنى!.

أووووه! لقد نسيت.. وسقط سهوًا! لقد ارتبطت بشاب يعشق الثرثرة والحديث، سوبر مان مصغر يفعل كل شىء! يعمل، ويدرس، ويطير، ويفعل كل ذلك فى لمح البصر. هو لها وهى له. تمثل الحب، ويمثل هو الآخر! تحسد آسيا على إرثها المتمثل فى ذلك الأبله الملقب بـ معتز! أما عن عبد الرحيم، من يرفض فتاة شقيقتها ممثلة مشهورة وخطيبها صحفى مشهور؟! ويجب علىَّ بدورى أن أصبح مثله، وأقتبس الكفاح والنبل. كافح.. كلهن يعشقن المكافح.. كلهن يعشقن الجرىء.. هكذا أدركت أين تقع مشكلتى. مشكلتى معهم وليس معها الآن! مشكلتى مع عائلتها، تأثيرهم الواضح عليها! أو معها! ربما لا دخل لهم فى ذلك الأمر! ربما هى لا تثنى على أحد! ربما هى لا تحب أحدًا! تستمع إليهم وتقوم بتنفيذ ما هو أصلح لها.. ربما! منقادة. غبية! ولكنى أحبها! بل أعشقها!

* * *

مع الزبونة:

أقول وأنا عاقد حاجبىَّ على شكل السبعة كلما تعلق حديثى بأمر غاية فى الأهمية:

ـ دايمًا أقول إنها الحصاله اللى هرمى فيها كل المشاعر الحلوه وهلاقى.. أرض هزرع فيها وهشوف بعد شهور وسنين حصادها بيشبعنى ويكفينى بس ملقتش!.

ـ اللى مبيعرفش يدى متستناش يديك.. ولا تستنى منه لا إخلاص ولا صبر.. بس غريبه هى مكنش فيها أى حاجه حلوه؟!

بنفاد صبر أقول:

ـ لو كان فى فهىّ تفضلت شاكره وخربت كل اللى بنا من القاع، أكيد مش هشوف الحلو رغم قلته.. مش هشوف غير كم التجاوزات المستمره اللى كنت بلعها بمزاجى.. اللى هييجى علىَّ وقت مش هفتكر غيرهم.. الانفصال شىء معقد.. لكن سهل فى نفس الوقت.

ـ إيه ده هو انتو منفصلتوش بعد اللى حصل؟!

ـ لأ.

ـ يا بنى مش قلت إن أهلها مسيطرين عليها؟ إيه اللى يخليك تبقى عليها؟ واحده ملهاش شخصيه وهوائيه وكلمه تجيبها وكلمه توديها و...

أقاطعها:

ـ اصبرى.. فى الآخر هتعرفى.

ـ كمل.

تقول آسيا:

- حبيبى.. إنت متعرفش أنا بحبك قد إيه! إنت عارف؟ إنت لو لحم على عضم هحبك بردو.

- بجد؟!

- طبعًا يا حبيبى.. دنا ما صدقت لاقيتك.. مش هستغنى عنك أبدًا، الواحد ما بيلاقيش اللى يفهم ويحب ويعشقو روح وفى الدنيا مرتين؟!

ـ مابحبكش!

أجيب ساخرًا:

ـ أومال بتعملى إيه؟!

ـ بتسلى.. بضيع وقت.. بقضى وقت فراغى!

بكل جدية قلت:

ـ وانتى شايفانى لعبه.. هتتسلى بيها ووقت ما هتتكسر ترميها؟

ترتبك ثم تضحك وتسخر، وتكون الحجة بالنهاية مقبولة بالنسبة لساذج مثلى! قالت ولا بد أن أتقبل:

ـ ها ها ها أنا بهزر معاك يا حبيبى.. وأنا اقدر استغنى عنك؟

برغم من أن كلماتها تستحق الذبح.. الخيانة العظمى لحبى ولو على سبيل المزاح..

تلك المنطقة التى تعد محصنة، ممنوع الاقتراب منها أو التصويب..

تلك القلعة التى بنيناها سويًا، فلن نسمح للأطفال بالعبث بالطبشور على أسوارها..

لن نسمح بولوج التتار لمدينتنا!.

لن نسمح لـ «نرمين» بالعبث بجمجمة أحمد مرة أخرى(*) برغم من معرفته بالأمر، إلا أنه جاراها للنهاية حتى يتيقن من شكوكه نحوها، ويضعها داخل القضبان الزرقاء لفعلتها الحقيرة! وذلك ما تستحقه بالفعل. متفقين على ذلك الأمر؟

لذلك لا يعد ما تقوله مزاحًا على الإطلاق!. رصاصات تخترق قلبى من كل ناحية وصوب، كتلك السهام التي تلقاها جنود سبارتا الأقوياء فى بسالة وترحاب فى نهاية الفيلم ـ لوكنت شاهدته - إلا أننى تجاهلت كل هذا بأكمله وأنا أغير الحديث بموضوع آخر تمامًا، رغم أن جسدى يدمى ولا يظهر شىء بالسطح، نزيف داخلى، هناك داخل الأوعية الدموية خطب ما! القلب يطلب النجدة! عربة إسعاف لنجدة ذلك الفيضان المكتوم!

دبوس صغير اخترقه ببساطة؛ فسبب انفجارات مدوية، ولا أظهر شيئًا، وباء قاتل يطلقه فمها بالنهاية! وذلك ليس بالأمر الهام. ظنت بأنها طفلة وأنا أبوها! وهل للطفلة التخلى عنه فى لحظات المرح بكل تلك السهولة؟!

ـ آسيا مينفعش تهزرى معايا الهزار ده تانى.. ماشى؟

ـ ومالو يعنى؟

ـ إنتى مبتعرفيش تهزرى!.. لو سمحتى بلاش.

ـ إمممم ماشى.

ورغم تكرارها لتلك الكلمات أكثر من ثلاثة آلاف مرة، وأربعمائة

(*) إعلان ترويجى مقصود لرواية (الجلسة التاسعة) لنفس الكاتب.. إن لم تضعها الآن فى مكتبتك فأمامك الفرصة لمعرفة ما فعلته نرمين بالتفصيل.

وخمسين مرة.. وبعدما أصبح قلبى ملجأً لعبثها الطفولى، كنت أصر فى كل مرة على عدم تكراره بنفس الأسلوب والطريقة، ونفس ردة الفعل.

قلت لها وبعد مرور ثلاثة أشهر فقط من المهلة التى أعطونى إياها ذووها الكرام:

ـ فاكره الراجل اللى شفناه فى الهايبر؟

ـ آه مالو؟!

ـ جابلى شغل.. «سيلز» فى شركة أدويه.

ـ هااااااااااا بجد ألف مبرووووووووووووووك .

ـ هنزل بكره الإنتر فيو إدعيلى.

ـ ربنا معاك ويوفقك يا رب.

كلمات.. أحاديث ثرثرة.. غدًا.. غدًا.. وعند الذهاب انخلعت الستائر عن أول معاناة فعلية لرجال السيلز الأكفاء.. عندما تذهب لتلتقط ذيل أحد عملاء الشركات كالقطط.. كى تريهم جودة منتجك فأنت عبقرى. عندما تخلع زى رجال الفوركس المهذبين.. عندما تخلع زى الصحفى النشط.. عندما تتجرد من هيئتك من شاب يعمل بمجال الصحافة كى يصبح مجرد شاب يعمل سيلز لتضرها. حينها تأكد أنك تحب وبشدة، وترغب فى محبوبتك وبشدة، من أجلها فعلت، ومن أجلها تفعل. وبالرغم من نجاحك فى مجال الصحافة، إلا أنك تقبل بالعمل فى أى مجال من أجلها! عندما تقلب الساعة الرملية، فلا مفر من العمل ماسحًا لزجاج السيارات، أو نفخ كاوتش السيارات نفسها فى سعادة مصحوبة بابتسامات الرضا.

هى أحلامى ولا شىء بعدها. هى المنتهى ولا يوجد بعدها سوى فراغ.. ظلام.. هى.. هى.. أما أنا، ليس مهمًّا! لست من النوع الأنانى الذى لا يفكر إلا فى ذاته فقط. الحب يجعلك تتجرد من كل شىء أصبحته يومًا ما. الحب يجعلك كالماكينة الآلية، لا تشعر ولا تبدى أدنى اعتراض من أجل الفوز بالمعشوقة! ولكن يا ترى.. هل هى كانت تستحق كل ما أفعله من أجلها؟! تستحق. بل الأكثر أهمية.. هل تقدر؟! شعور يتصاعد رويدًا رويدًا بقرب نكران الجميل عما قريب! كلَّا!. لن أفكر أو أطرح ذلك الأمر بمخيلتى فى تلك الأوقات. تورمت قدماى من كثرة اللف والدوران على تلك الشركات اللعينة كى تقبل منتجاتنا! بعثرنى.. فتتنى.. نشاط مفرط. علاقات هنا وهناك. أكثر من بقعة تطؤها قدماى بكل لهفة وسرعة وحماس! (تارجت) مرتفع كما تعلمون، يقابله فى الاتجاه الآخر من رئيس العمل تجاهل بحجة (إعتبره تدريب) اذهب إلى منزلى.. وإلى منزلى الآخر (صوتها) عبر الهاتف كان يزيدنى طمأنينة غريبة! رغم شعور الفراق الذى نشب داخلى، إلا أنه لا يزال يعطينى الدفء. تقول بكل حنان مصطنع:

ـ ها عملت إيه النهارده فى الشغل؟

أجيب بعد شهيق وزفير مريح:

ـ مفيش.. لفيت لف محترمه.. والمدير بيقولى إعتبره تدريب.

تقول مواسية:

ـ معلش استحمل.. مهو لازم علشان تحش جمعيات.. لازم علشان نبقى مع بعض... يووووووووووه هو انا لازم أقولك؟ مش كفاية أنا بشجعك اهو.

ـ ههههههه طب كملى تشجيع للآخر.. وكملى وقفتك جمبى.. تليفونك بيهون علىَّ تعب اليوم كله.

ـ أنا بشجع اهو.. خايفه أجيب آخرى.. خايفه تستنزفنى ومعرفش أشجعك تانى.. أرجوك بلاش كسل.

عن أى كسل تتحدث؟! سوف أتجاهل ذلك برمته الآن وأعلن عن خبر، أود جس النبض ليس أكثر.. هل شعرت بإرهاقى بالفعل بينما أحدثها؟ من المفترض حينما تضعف وتخفو نبرة صوتى قليلًا بسبب الوهن والإرهاق الشديد. هل حمل صوتى وهنًا وضعفًا من الأصل؟! هل شعرت بمدى قسوة ذلك العمل؟!

قلت:

ـ بدور على شغل ورديه تانيه تكون من الساعة ٥ ل ١١ أو ١٢.

قالت بفرحة غامرة:

ـ بجد؟! هاااااااا برررررررررررافو! خبر حلو جدًّا.. أنا فرحانه بيك.. يلَّا علشان نكون مع بعض يلَّا علشان نزهق من بعض.. يلَّا علشان أشوفك كل يوم.

* * *

تهاتفنى أثناء العمل. هل لى بمساحة كافية للعمل بمزاج مستريح؟! كلا.. سوف تجيب.. وما إن تصل إلى منزلك تهاتفنى.. أنا لك وأنت لى.. ولكن لو جئت بشىء مكروه لن أعتاب، لن ألوم، سوف أتركك يومًا أو بعض يوم كى تدرك أخطاءك. هاتفنى أملأ الكون ضجيجًا بوجودك. أنت بهذا تسلينى، وتغمرنى وتملأ الفراغ المتسع أمامى. هيا حدثنى، حدثنى.. وإن حدث وتعثرت فالذنب كله عليك، ألست رجلًا؟! الرجال لا يتعثرون! الرجال كُتب عليهم العمل ليلًا ونهارًا كى يحملوا للسيدات الخير والمال!..

المال! تبًّا لك! أتحدثنى ليلًا ونهارًا دون كلل أو ملل؟! سوف أحدثك أنا، سوف أشغل أوقاتك أنا. لا تلم إلا نفسك، سوف أتركك يومًا ما. بعدما أجعلك خاتمًا فى أصبعى. سوف أجعلك تندم ندم الفلاح على ضياع محصوله المحروق فى وضح النهار، سوف أجعل منك عبرة، رغم أنك لا تستحق، فسوف تستحق! فتلك الأرض لا تحتمل السذج أمثالك، فحدثنى وحدثنى: لماذا لم تصبح سوبر مان وتتحمل ما لا يتحلمه أحد؟! إنه يحمل الأرض فى كفة، ويحملنى فى الكفة الأخرى دون أن يعبأ أو يهتز! كيف فعلتها؟! هذا ليس عدلًا سوف أتركك!

* * *

مع الزبونة التى قالت:

- (سكت ليه؟).

أنظر إليها فى لامبالاة، محاولًا كتم مشاعرى برمتها، مظهرًا كم أنا الآن هادئ! لا تحاولى إخراج ما لا أود إخراجه لكِ وللجميع! وبالرغم من محاولتى إخفاء نبرة الحزن فى صوتى، إلا أننى لم أفلح حقًّا وأنا أقول:

- كل ما افتكر المواقف دى بتعب نفسيًّا!.

- إنت قلتلى هى برج إيه؟

- العقرب. إشمعنى؟! وإيه دخل برجها فى موضوعنا؟!..

تقول بكل سخرية ممتزجة ببعض الجدية وهى تقول:

- لا هههههه إنت مش فاهم... الأبراج دى عامله زى دليل التليفون كده، العقرب لما يقفل من حد بيقفل ضبه ومفتاح علشان تبقى عارف

ومتفكرش فى أى بوادر للرجوع! وبرغم انك عارف عيوب العقرب، ومع ذلك استمريت فى الموضوع.. العقرب برج مبيعرفش ولا بيفهم فى العواطف. برج عملى جدًّا.. فمش هيسمعلك غير لما يشوف نتيجه، حتى لو كنت فعلًا فى حرب اية الى يثبت لو مفكش إصابات.. ودايمًا بيرجح العقل عن القلب، وبرغم زى ما قلت قبل كده إنها رجحت فى أول العلاقة كفة القلب ووقعت زى الطربوش «سورى» يعنى. العقرب مبيسمعش كلام.. لازم يشوف أفعال.. ده بعيد طبعًا عن الظروف اللى اتربيت عليها.. عمرها ما هتقدر اللى بتعمله.. دى طبيعه بشريه.. الطبيعه البشريه اللى بتقول صوابعك مش زى بعضها.. والبنى آدمين كمان أشكال وألوان.

أقول باستنكار فاضح:

ـ رغم العشره والعيش والملح والحب والعطاء وإنكار الذات؟!

قالت وكأنه شىء معتاد وتقليدى للغاية وهى تشرئب بعنقها وكأنما الموضوع دخل فى مجال دراستها:

ـ رغم كل اللى إنت قلته.. هى كانت أكيد عايزه منك توصل لنقطه معينه وبس ولما معرفتش وده اللى أنا بتوقعوا.. حسستها بالفشل والانكسار والضياع، وده اللى ممكن يرجعها للأنانية المطلقة، ويخليها متفكرش فى حد غير نفسها وبس! ده لو مكنتش بتتعامل معاك بالأسلوب ده من البداية.

قلت ساخرًا كما اعتادت:

ـ هههههههههه آه والكلام الفلسفى عن البايع والشارى والبضاعه التى ارتضى عليها البايع والمشترى كذا وكذا، وخليك أد كلامك يتخلى كلامك على قدك.. ليتنا نستطيع تغيير الماضى، لكنا غيرنا أشياء وأشياء!.. وشكرًا على دروس الماضى وكذا وكذا.

ضحكت بدورها قائلة:

ـ ما انت حافظ اهو أومال إيه بقى؟ وعاملى فيها الطائر الحزين!.. الناس دول بشكل عام سواء راجل أو ست الحالتين متشابهين بشكل كبير، الراجل غير عاطفى، لكن جذاب، عملى جدًّا، وده تلاقيه فى أبراج العقرب والأسد والعذراء، والست كمان نفس التطابق، باختلاف جنس المولود و...

قاطعتها بنفاد صبر ملحوظ:

ـ طيب ممكن أكمل؟

أخجلتها كثيرًا بقلة ذوقى، التى لم تراعِ تحضرها معى، فقالت وهى تلملم أوراق خجلها بكل هدوء قائلة:

ـ كمل.

* * *



الملل فى الحب وارد... بس مش علاجه إنك تبعد.

البعد فراق ... فراق!.

(أتدرى ما هو أصعب من الفراق؟

أن تعلم أنه فراق!).



أجلس لأعيش فى ذلك الظلام! لكل منا جانب مظلم! لا يوجد بشرىٌّ لا يملك جانبًا مظلمًا كما قلت. جانب مستكين، يسبح الظلام فى عروقه بكل دفء وسلاسة وهدوء، ككريات الدم الحمراء والبيضاء، انضمت إليها كريات الدم المظلامة.. ظلام.. هناك شخصان يتحدثان داخلى ولا أدرى! هل أحبها حقًّا؟! أبعد تلك المرحلة الحرجة تتساءل؟! أنا لا أتساءل. أنا فقط أخرج ما فى جعبتى من أسئلة. لا تتساءل. فقط اصمت وتابع مشوارك، ستظل جوارك أبد الدهر. يا صديقى إنها دائمًا ما تكسر القواعد تكسيرًا، وذلك الشك بدأ يتسلل داخل شرايينى يا أبله! سلها مرة أو مرارًا.. هل تحبينى؟ ستتأكد من بقائها ومظلة حبها سوف ترافقك إلى القبر، وستقيك من الأمطار العاصفة. لا تقلق. إنها تكسر القواعد دائمًا. يومًا ما لن أمر من هنا! يومًا ما لن أمرر يدى على شعيراتها بكل حنان كما أحبت! يومًا ما لن تتلامس كلتا يدينا! أضع يدى وتضعها فوقها كالأطفال! كفى ثرثرة! هى لك وانت لها. هى كانت السبب بعد الله سبحانه وتعالى فيما وصلت إليه من نجاح. فلن تستغنى عنك دفعة واحدة وتترك إرثها لغيرها. مستحيل! أيها الغبى.. ألم ترَ كيف كررت تلك الجملة اللعينة؟ إنها تتسلى آلاف المرات، مداعبة ليس أكثر، وإن انقلبت الدعابة رأسًا على عقب لتتحول إلى واقع مادى، سوف تجن يا عزيزى! سوف تجن قريبًا! لقد قالت من الوعود ما يكفى لملء المحيط الأطلسى. لقد أقسمت لك مسبقًا على البقاء، فلا تكذبها.

هى تكره الكذب. ها ها ها.. اخرس واصمت، أنت لا تدرى ولا تعلم كم شخصية مثلتها أمام عينى بنبرات الصوت ذاتها!.. حدثتها ذات مرة على أنها شقيقتها سامية. إنها تجيد الكذب والتمثيل والخداع معًا، والعيش كطفلة مسكينة بالنهاية.. عندما تفقد القدرة على حل أزماتها لا تتحمل مسؤولية مطلقًا لم تعتد ذلك من قبل. لا تظلمها يا أخى! هى مجرد طفلة حُرمت من.. ممّن ها؟؟؟!.. لم تحرم من شىء أيها الوغد! ألم أعوضها عن فقدان أمها؟! عن قسوة أبيها! عن تجاهل الإخوة والأخوات! من أعطاها الاهتمام وأعاد إليها ثقتها بذاتها يا أخى العزيز؟! من؟! لو استمعنا لثرثرة الطب النفسى لرأيتها تغذى غضب الطفلة التى بداخلها لخيبات الأمل المتكررة فى حياتها السابقة.. عن طريق بث نقدها الدائم والمتكرر الهدام نحوى، نحو أقرب مخلوق.. من أحبها بكل صدق!.

كثرة حديث النفس سوف تدمرنى قريبًا! أسرعت ألتقط الهاتف لطلب أول الأرقام.

هى.. ومن سواها؟!

ـ ألووووو.

ـ أيوه يا بيبى.

ـ بتحبينى؟

ـ لأ.

ـ طمنتينى.

* * *

مع الزبونة....

تفصل حبل السرد دائمًا قائلة الزبونة الدائمة التى شككت لبرهة أنها ترد لى فعلتى الأخيره بقطع حديثها دون عمد أو قصد فى تلك الساعات قائلة بنفاد صبر مماثل:

ـ الساعة قربت على ١١ ولازم أمشى.

أقول ببساطة:

ـ ممكن تيجى بكره أحكيلك؟

تقول مصعوقة:

ـ لا لا لا مش هسيبك غير لما أعرف! وأنا لسه هستنى لبكره إيه اللى حصل.. ازاى انفصلتوا؟ وحصل إيه بعدها؟

آخذ شهيقًا طويلًا وأقول:

ـ شهر ٨ الأسود.. شهر الانفصال العالمى.. الشهر دا اتغيرت مشاعر بنى آدمين كتير الوقت ده وأولهم مشاعرها.. كنت خلاص شبه ادمرت.. جايب آخرى.. لا فى اهتمام بمظهر أو بهيئه أو بنفسى.. ساعتها كنت بروح للدكتور أطمن على نفسى.. كنت بحس بإرهاق شديد من أقل مجهود والدكتور بيقولى جسمك اتأثر بتفكيرك وحملك.. شيل كل اللى فى دماغك ههههه واتجوز. كنت مبنمش.. الإرهاق والتعب والتوهان وصلوا لأقصاهم.. الجريده طالبه منى مقاله جديده وأنا مش عارف أمسك حتى القلم.. كنت بخاف من القلم.. كنت بتصل بيها.. كان اتصال فاتر روتينى ملوش أى طعم.. كان واجب يعملوا والموضوع انتهى.. كنت شبه بنى آدم فى نظر نفسى.. من كلمتها المتكرره إنها عايزه واحد طموح.. راجل تتسند

عليه.. راجل يشيل مسؤوليتها.. واحد قادر ماليًّا.. طلبات فى ازدياد.. تعجيز.. هدم نفسى من ناحيتها وإرهاق دائم فى الشغل.. غير إنى بدور على ورديه تانيه.. غير إن المهله بتاعت أهلها بتخلص.. مفيش مسانده من أى اتجاه أو أى نوع.. إلى جانب المشكلات العائلية الكتيره اللى فى حياتى كلها تراكم.. كانت بتبقى السفنجه اللى بتمتص من وجه نظرى.. بس كل ده أول ما أكلمها إلى أن أصبحت حجر ناشف، قاسى مش قادر حتى يريحنى لما أتسند عليه.. زادتنى وحملتنى فوق الحجر صخور.. وبشعورى إنها حمل رغم إنى بعشقها.. كنت حاسس إنها قاصده تكون حمل وده الأصعب.. كنت بستغرب إذا استحملت حاجات كتيره ميقبلهاش أى شاب! حتى لو على سبيل الحب! قبلت وكملت، عملت كل حاجه علشان تزهقنى وتسيب المركب وتخلع، اللى مبقاش عارف يروح فين.. قاصده وبزياده.. حسيت إنها بتعاقبنى إنى حبيتها!.. تخيلى بقى لما تدى حب والطرف التانى يعاقبك على حبك! ليه؟ كنت أخلص شغل وأنزل أدور على شغل وأكلمها وانا فى المكان اللى بدور فيه على الشغل وأقولها إنى فى الشغل أو فى البيت.. مكنتش بقولها لإنى عارف مسبقًا يهمها النتايج. كنت عايز أثبتلها إنى السوبر مان اللى حلمت بيه، من ناحية اسمى بقى بيلمع فى عالم الصحافه وهى عارفه. كانت بتقول إنها لما بتحب حاجه وعايزاها أوى أوى عملت كل البلاوى دى.. ولما ملقتش نتيجه، على حد قولها، أو على قد تفكير برج العقرب لما يبيع يبيع ببلاش كمان.. مكنتش بتفهم معنى التقدير، ولما كنت أقولها إنتى مش مقدرانى ومش عارفة إمتى! يااااااه كنت بصعب على نفسى لما ألاقيها بتسخر من الكلمة دى، هى متعرفش قيمة أى حد علشان تقدره وتقدر قيمة وجوده فى حياتها. متعرفش معنى إن يكون معاكى كل حاجه وتفقديها علشان طلباتك زادت وعايزاها أكبر من كده.. بحجج كتيره.. زى إنت كداب.. إنت كسول.. إنت.. وإنت.. نسيت أهم حاجه..

بل نسيت حاجات كتيره أوى وهى بتنقص .. نسيت اللى ساندها.. ولما ساندت عايرت. نسيت اللى حبت، ولما وصلت وحبها زهقت.. نسيت اللى عاملها كطفله فى الوقت اللى عاملها كل الناس معاملة الحيزبونات فى سوق الخضار.. هى أنانيه وأهلها بردو شايفنها أنانيه ويمكن دى الحاجه الوحيده اللى مش مخلياها تشوف الحقيقه كامله.. بتشوف بس اللى هى عايزه تشوفو بس.. الباقى ميخصهاش.. تشوف اللى عايزه تتباهى بيه قدام الناس.. اللى هو أنا.. مش اللى بتحبو هى.. رغبتها شكليات.. حبها فرعيات.. الأساسيات مش موجوده.. مش موجوده.

صمت وقد تفهمت ما أشعر به!.. الحفر فى القبور.. الذكريات هواية متعبة وأنا الآن أحاول العبث فى قبور الذكريات وبكل براعة.. رغم نظرات التعاطف المطلة من وجهها، إلا أننى كنت بارعًا فى تدارك ذلك الأمر برمته.. وأنا أقول بعدما أطلقت زفرة طويلة:

ـ ودى كانت البداية.

قالت بدهشة:

ـ هو لسه فى تانى؟! إنت قلت كده كل حاجه! مستنى إيه تانى؟ بتقولى شحرت وجبت آخرك مش الحكايه كده خلصت؟

ـ لا كنت بعافر برضو، مش لما بتسقى زرعه وتفضلى تراعيها سنين طويله، بتهتمى بيها لدرجة إنك نسيتى تهتمى بنفسك؟! المفروض الزرعه تطرح وتديكى خيرها، كنت مستنى أشوف آخرة كفاحى معاها اللى مذكرتوش ولا مره معاها.. مش من النوع اللى بيفكر البنى آدمين بحسناته وأفضاله عليه، بل بالعكس تمامًا.. أنكرت ذاتى تمامًا!!

ـ وانت طبعًا شايف إنها هتفتكرلك حاجه لما تيجى تسيبك؟! إنت حاجه

سهله جمعتها الصدف بيها! واللى مبيعرفش قيمة الحاجه دايمًا بيرميها!.. أنا مثلًا لو حبيت ممكن أعدى حاجات كتيره لو مشاعرى حقيقه ولاقيت منه استجابه.. بس لو لاقيتو محلك سر «سورى» هشيلو من دماغى خالص!.

أكتم دمعة لن تهبط الآن وأنا أقول بكل غضب:

ـ لما سابتنى مسكت إيدى وضمتها قوى فى حضنها وعيطت!

تضحك قائلة:

ـ لازم تعيط أومال انت فاكر إيه؟! هى عايزاك تسيبها ومتنسهاش، وفى نفس الوقت مترتبطش بغيرها.. تتمنى إنك تموت ولا تروح لحد غيرها.

ـ آااه مرض يعنى؟!.

تقول باستنكار:

ـ مرض إيه يا بنى؟! أومال إيه دارس فى الأبراج وعارف خبايا برج العقرب؟! ده سر من أسرار برج العقرب!

أبتسم بسخرية:

ـ ههههه معلش نسيت كل حاجه أعذرينى!

ـ الموضوع خلص؟

ـ الصبر.. لازم تصبرى.. الأحداث اللى جايه خطيره يمكن اللى فات ده كله ولا حاجه قصاد اللى جاى!

ـ كمل.

* * *

تعريف وأنواع الشخصيات الشكاكة أو المسيئة للظن

المراد بها:

من الناس من فيه علة في شخصيته، مدارها حول الإفراط والمبالغة فى إساءة الظن، والشك فى الآخرين واليقظة والحذر منهم، وهؤلاء فى درجات متفاوتة من حيث شدة العلة فيهم، فقد تكون فى بعضهم علة خفيفة (سوء ظن يسير) وفى آخرين علة شديدة تكفى لتشخيصهم بأن لديهم اضطرابًا في الشخصية وهو اضطراب الشك والريبة.

صفاتها:

تغليب سوء الظن فى معظم الأوقات ومع معظم الأشخاص فى أقوالهم وأفعالهم دون أن يكون لذلك ما يدعمه من الواقع، وإنما بسبب علة فى الشخص نفسه وقد يزيد سوء الظن إذا كان هناك ما يثيره ولو بدرجة يسيرة. المبالغة فى الحذر والترقب والتوجس والحيطة من الناس مع عدم الثقة فيهم وتوقع الإهانة منهم، أو الغدر،أو الخيانة، أو الأذى، أو نحو ذلك. حساس جدًّا فلو أخطأت عليه بدون عمد قد يتضارب معك! المبالغة فى التأثر بانتقادات الآخرين وتضخيمها وتحميلها ما لا تحتمل من المعانى السيئة مع المسارعة فى الرد عليها، والدفاع عن النفس قولًا أو فعلًا، وإن لم يستطع الدفاع كتم الحقد فى نفسه ولا يحاول تناسيه، وإنما يحتفظ به إلى الظرف المناسب (مهما كان الانتقاد يسيرًا أو تافهًا).

إسقاط أخطائه وهفواته على غيره. والإكثار من المراء والجدال والخصومة والتحدى والعناد، مع الاعتداد بالرأي؛ مما يجعل التفاهم معه أو إقناعة فى بعض الأمور أمرًا صعبًا، ولا سيما إذا كان أمام الآخرين وكما يقال: (رأسه

ناشف) المبالغة فى تصور العداء والتنافس والتحدى، وكأنه يرى العالم غابة، يأكل القوى فيها الضعيف. السعى إلى الزعامة والسيادة والسيطرة والقيادة والتمكن من تدبير الأمور مع الأنفة والاستنكاف أن يكون مرؤوسًا لأنداده وأقرانه. السعى إلى إثبات ذاته ووجوده أمام الآخرين. عدم الاعتراف بالجهل أو أى نقص فيه. المبالغة في التعرف على ما فى نفوس الآخرين وما قد يخفونه عنه من الأمور المهمة، وقد يتطفل على خصوصياتهم، ويتجسس عليهم أو يحتال عليهم ليعرف ما عندهم، وفى المقابل يميل هو إلى السرية والتكتم بدرجة مبالغ فيها، ويتوهم أن المعلومات التى يخفيها قد تستخدم ضده يومًا ما. إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدق ما يعتاده من توهم الحرص على جمع الإدانات من أقوال وأفعال التى تنفعه ضد خصومه، وقد يحتفظ بها مدة طويلة ويبالغ فى الاستناد إليها والاستشهاد بها وتكثيرها. الحرص على معرفة الأنظمة والقرارات، وكل ما يمكن أن يخدم أهدافه في خصوماته ليدافع عن نفسه أو ليهاجم غيره. المبالغة فى الصرامة والشدة مع ضعف مشاعر الحنان والمودة والرحمة، وتغليب العقل على العاطفة فى معظم الأمور. نادرًا ما يميل إلى المزاح أو يرضى به فى حقه، وغالبًا ما يبحث فيه عن معنى خفى قد يكون الممازح أراد به إهانته، كما أنه هو إذا مازح فإنه يستثمر المزاح فى إهانته وانتقاد غيره ومماراتهم ونحو ذلك، كما يقال: (مزح برزح).

القدرة على الإصغاء والتركيز مع البحث عن معنى خفى فى نفس المتحدث، والمبالغة فى تصور التآمر ضده والتحامل عليه. التركيز على أخطاء الآخرين وعيوبهم وهفواتهم ونقصهم، واستخدام ذلك فى المواجهة معهم، مع التغاضى عن حسناتهم. شديد الغيرة جدًّا ويحب المنافسة كثيرًا.



تقطاعنى للمرة الألف قائلة بنفاد صبر:

ـ يعنى بدل ما توديها للدكتور عملتلها دكتور! وبعدين إنت أصلًا كنت عارف إن برج العقرب شكاك مش مريض. فى ناس عندها الموضوع ده بالوراثه.

ـ فعلًا بالوراثه.. بس أعمل إيه؟! كنت بحبها يا... إنتى إسمك إيه معلش.

ـ التزم بالاتفاق!

أصمت بعدما شعرت بالإحراج! تناسيت اتفاقنا السابق، شيء طبيعى بعدما تجاذبنا أطراف الحديث. بدأت أكره الاتفاقات، ثم أكمل بنبرة خافتة:

ـ واللى بيحب يساعد بيعالج وبيطمن.. وبعدين بصرف النظر عن إنها شكاكه مخها يوزن بلد.. ومشورتها كانت طريقى للنجاح!.

قالت بتوتر:

ـ بس هى رفضت واستمرت فى الشك وادتك فوق دماغك أكتر من مره! تعالج مين يا بنى؟!

ـ كان لازم أعالجها بطريقتى!

قالت بكل استنكار:

ـ يعنى حضرتك اشتغلتها دكتور! طب والله برافو! ازاى يا بنى تحاول إقناع واحده كده كده كانت هتشك فيك حتى لو ماشى صح؟!

أجبتها بنفاد صبر:

ـ حاولت أتعامل معاها بنفس طريقة الطبيب النفسى.

ـ والدكتور معندوش علاج؟

ـ لأ موجود.

تتأملنى وكأنها ترانى لأول مرة كالمشدوهة! لولا أنها لم ترنى سوى مرة!..

قائلة بكل استنكار:

ـ هو فى حب كده؟!

ـ قصدك تقولى فى هبل كده؟!

باستنكار قالت:

ـ أنا مقلتش كده!.

لم أجب.



كيف يتعامل الطب النفسى مع من يتمتع بسوء الظن والريبة؟

يجب الحذر فى التعامل معه، فهو يقرأ ما بين السطور ويفسره على أنه تهديد! لذا يجب أن يتم وزن كل كلمة فى التعامل معه، وأن تكون الكلمات مختصرة قدر الإمكان. الصراحة والوضوح معه فى الأقوال والأفعال؛ لئلا تثير الريبة في نفسه. عدم المبالغة فى الصراحة معه أو الاعتذار منه إذا بدر منك تجاهه تقصير، فإنه قد يفسر تصرفك تفسيرًا غير الذى قصدت أنت. تجنب مجادلته ومماراته وانتقاده، ولا سيما أمام الناس، وبيّن له ما تراه صوابًا بأسلوب لطيف دون تعنيف أو إلزام بتغيير قناعاته، فليس هين عليه أن يفعل ذلك.

إن احتجت إلى محاورته، فاستعد لذلك بالأدلة المقنعة والحجج القوية والحوار الهادئ، مع الحذر من إسقاطاته. لا تدعه يسقط عليك أخطاءه وتقصيره وهفواته، ولا تواجهه بعنف فينفجر، إلا إذا كان لك عليه سلطان وتستطيع أن تسيطر على الموقف ولديك ما يكفى من البراهين والشهود. أعطه ما يستحقه من الاحترام والتقدير إن كان أهلًا لذلك، ولا تحتقره إن لم يكن أهلاً للاحترام. إذا رأيت أن المواجهة الكلامية لن تجدى معه، فاستعمل أسلوب المكاتبة. هكذا كنت أتعامل معها منذ البداية قبل أن أفقد أوصالى وأستسلم. بتلك القواعد السابقة ذكرها، من يحب يعالج ولا يستسلم، من يحب يرتضِ ويستمر، من يحب يصر صبورًا.

الصبر..

الصبر..

هنا لا بد أن أعذر ملتحقى درب الطب النفسى. هناك قوم ممتلئى العلم ولا يستطيعون إخراج شيء منه إلا قليلًا. ومهما حاولت، فلن أخرج منه معها إلا قليلاً.

عبر الهاتف أحادثها.. تقول بكل حب:

ـ حبيبى إنت مش عارف إننا لما نتجوز جزمتك هتبقى فورق راسى!

صدمنى قولها قليلًا وأسعدنى للحظات! ربما تغافلت عن أفعالها الحمقاء، ربما شعرت كم كانت بريئة فى ذلك اليوم! ترى مِمَّن اقتبست تلك الكلمات التى وبكل تأكيد سوف تتناساها عما قريب فى أقرب مشاجرة بيننا؟!.. تكمل:

ـ أنا هشيلك فوق راسى.. مش هعتلك أى هم.. إنت تعبت الفترة اللى فاتت كتير وربنا يقدرنى وأنسيك كل ده.

أجيب ولا أدرى لماذا لا أستسيغ كلماتها تلك المرة! قائلًا بشكل روتينى:

ـ ربنا يخليكى ليا.

ـ أخبار الشغلانه التانيه إيه؟

ـ لسه مستنى.. أخدت معاد الشهر ده.. دعواتك تكمل على خير.

ـ لا إنت قلتلى.. إنت قلتلى أول الشهر ده صح؟ مش ده كان اتفاقنا؟

ـ أيوه قلت بس مش بإيدى.. أعمل إيه؟!

تقول فى سرعة كالطفلة التى خان وعدها الكثيرون بنبرة اللوم:

ـ إنت كسول.. أنا زهقت.. أنا سبت شغلى علشان أفضالك واتفرغلك.. بقى فلانه الفلانيه تشتغل وأنا أقعد لسيادتك وأفضل أشجع فيك وانت واقف محلك؟.. وعدتنى بشغلانه تانيه على أول شهر ٨ صح؟.. فين.. فين ها.. ها؟

ـ مش هرد!

ـ أووووووووف أنا عايز أقفل ممكن؟

ـ هو فى إيه بقى؟

ـ فيه إن أنا زهقت.. جبت آخرى من العلاقه دى!

ـ أيوه يعنى عايزه إيه؟!

تقول بجدية:

ـ معتز لو استمرينا فى الوضع ده هاحرقك!!

ـ أيوه اختصرى يعنى عايزه إيه؟

تصمت...

هدوء.. لأول مرة يسود ذلك الصمت بيننا. أتذكر الآن أكثر من موقف كان يمتاز بالغرابة! يوم توقفت سيارتها وكنا متجاورين أمام سور إحدى الحدائق العامة، أمسكت بيدى فى أحضانها بقوة، وأبعدت وجهها عنى بنفور غريب! لم أرَ وجهها! لقد كان المشهد صامتًا. نظرت إليها بكل ود.. أبعدته عنى حتى لا أرى دموعها الغزيرة:

ـ إيه ده؟ إنتى بتعيطى؟! حبيبى مالك؟ فين المنديل؟

ـ مش عايزه حاجه.

ـ مالك بتعيطى ليه؟ هو حصل حاجه فى البيت؟.

ـ معتز أنا مش هينفع أكمل.

ـ أفندم؟!.

ـ أنا استكفيت! مبقتش قادره أدى زى الأول، لو كملت هاحرقك، أهلى ادوك مهله إنت مش قدها، لا انت فى سنه هتقدر تعمل حاجه، ولا أنا قادره أدى زى الأول.. الموضوع بقى لود عليا!

ـ أوكى تمام.. عايزانى أسيبك إمتى؟

تندهش قائلة:

ـ قوام بسهوله كده؟!.

زاد ضغطها على يدى.. أنظر إلى عينيها لأجاوبها بأعمق لغة فى الوجود.. لغة العيون...

كيف أتركك وأنا أعشقك أيتها المغفلة؟! فأجاوب بهدوء ولا أخفى

نبرة الحزن:

ـ أنا مش بحبك وبس.. أنا بموت فيكى.. فكرت أسيبك أكتر من خمس مرات قبل كده.. وفى كل مرة بيكون معايا حق! لكن فى الآخر بحبك وعايز أموت وأنا معاكى.

تمسك الدفة من جديد:

ـ أنا مش عايزه أكمل.

عشرة أيام سابقة على تلك الواقعة.. أعود إلى أرض الواقع، ممسكًا بالهاتف المحمول.

ويبدو أنها كانت تدرس القرار، وتلك الأزمة كانت الشرارة التى نفس طويل قبل أن تحسم قولها الأخير:

ـ مفيش نصيب!!.

ـ ههههههههههههه طيب إنتى مش كنتى عايزة تقفلى؟

ـ معتز أنا مش عايزه أكمل!.

ـ يعنى عايزه إيه؟

ـ سيبنى أهدى.. سيبنى يومين.. تلاته.. أسبوع.. شهر اتنين.

أين سمعت أذناى لتك الجملة من قبل؟! شقيقتها سامية قالتها لى ذات مرة. قالت اتركها كى يتجدد عشقها إليك.. اتركها فترة كى تشعر بالحنين من جديد. اتركها!!.

وهى لا تحنث بوعدها بتنفيذ ما نصحتها به شقيقتها أبدًا.

قلت:

ـ سلام!!

العطب الأخير للعلاقة هو اذن!

هذا ما أشعر به الآن يقينًا.

لطالما شعرت بأنى مجرد مرحلة، كل أفعالها تبرر ذلك الأمر وبشدة.

تود إنهاءها حينما تمل حقًّا.

لماذا أصرت على الاستمرار؟! حقًّا لا أعلم!.

هيا.. فلتحملوا ذلك النعش ولتدفنوه بعيدًا عن هنا كى لا تراه الشرطة! إنه يحمل قلبى. إنه قابل للكسر!.. ولا تنسوا دفنه فى مكان بعيد عن القلعة كى لا يلمحه الحراس وتصبح كارثة كبرى! ماذا قالت؟! أبعد ذلك العناء تفصل ذلك الوتر بكل سهولة كى لا يكمل المنشد عزفه؟! تقتل الملك آرثر كى لا يتمكن من اكتساح العالم بانتصاراته الكبرى؟! تمنع الدماء من التدفق داخل أوردتى وشراييني وتبكى القلب بشدة؟! هل ما بنيته سوف تهدمه بكل بساطة تلك الشمطاء التى لا يحبها أحد سواى؟! لا يحبها بكل صدق سوى ذلك المعتوه تحت مسمى حبى الوحيد الملتهب!! هى لى وأنا لها! لن تمسها يد غيرى عندما تعبر ذلك الشارع الطويل.. لن تتأبط ذراع أحد سواى فى صالة السينما وتقبلها وتهمس بأداء مصطنع (بحبك). لن تعطى أحدًا غيرتها سواى أمام طفلة صغيرة، التى كنت أداعبها بكل براءة! هى تريد أن تصبح طفلتى الوحيدة وقد فعلت! لن تتركنى لغيرها مهما حدث!!

ماذا فعلت بى؟! معتز الذى لا يهتم بأحد يهتم ويعطيها فوق ما تستحق! الذى قرر عدم الوقوع فى الحب وقد فعل! نصبت شركها وأوقعتنى! وها هو العقرب يحتل موقع العنكبوت، ويأتى فى هدوء، ويظفر عبر شباكه الاصطناعية حولى! سوف يستمتع بغنيمته فى تلذذ منقطع النظير. الآن

سوف ينقض.. الآن سوف ينزع الأحشاء ويضعها فى فمه بعد دس سمه فى جسد الضحية. وقد دس سمه! وها أنا الآن أنتظر الإجابة. هل عنت ما قالته؟! هل سوف تتركنى؟!

* * *

لو كنا نمتلك كاميرا تصوير سينمائى، لقربت الكادر أكثر وأكثر على سطح تلك الأرض الزراعية الخضراء، أجلس على الحواف أنا وهو (أبوها) لو كان المصور محترفًا لا بد أنه التقط تعابير وجهى التى تحاول التماسك، محاولًا إظهار مصداقيتى التى حطمتها وأعطت بقشيشًا لرجل القمامة بإبعادها عن الطريق. مع أبيها نحتسى كوب الشاى الساخن، ويقول بكل هدوء:

ـ إيه المشكله دلوقتى؟.. إنت مش شغال؟ تبقى فين المشكله؟

ـ اسألها..

ـ أنا مسألش حد.. إنت مش ملتزم معانا بكلمه ولّا ايه؟

ـ ملتزم بس هى ليها رأى تا...

ـ لا تانى ولا تالت يا بنى.. فى الأول بنتنا بتقنعنا بيك وحطيناك فوق رؤوسنا وفى الآخر جاى تقول مش عارف إيه!

أنا عند كلامى والكلام متغيرش.. بس كلامها هو اللى اتغير.. بتقولى مش عيزاك بعد ما خلصنا تشطيب نص الشقه وحاجات بسيطه ويبجى المعاد.

ملكش دعوه بيها!.. انت مش شغال؟

تبًّا للتكرار! لذلك التكرار:

ـ أيوه والله شغال!

ـ طب خلاص كمل وملكش دعوه بيها.. كلامك معانا مش معاها.. هى ملهاش رأى!

ـ يا حاج بس فى الأول كان معاها وبعدين بقى معاكم.. دلوقتى بقى معاكم ومش معاها .. مش شايف حاجه غريبه؟!

ينظر إلىَّ فى صمت وصرامة مطلة عبر مقلتى عينيه الناريتين، وقال وهو يرتشف كوب الشاى مرة أخرى:

ـ اشرب شاى.

* * *



(حديثى مع نفسى)

لا بد أن الليل حقًّا رفيق المغتربين فى غياب الأحبة كما يقولون! ففى هدوء الليل، أسكن الظلام الذى يذكرنى بماضٍ دُفن خلف ذلك القمر. أعود للماضى فى كل ثانية تمر. شىء مروع! ممتعٌ! مميت! ذكريات تسيل بكل سهولة ويسر وكأنها البارحة. فلا عجب أن فى الظلام وحده يصمت الجميع داخل قاعات السينما لعرض الفيلم. هدوء.... هدوء...... أترى تلك النجمة التى تسبح الآن فى بحر من الظلام! راقبها فى صمت! وقل لى.. هل أعجبك فيلم ذكرياتك الحزين؟



بنفس المكان وتلك البقعة، نجلس مرة أخرى بعد مرور عشرة أيام من الجلسة السابقة كى يقول بكل جدية تلك المرة:

ـ بنتنا بتقول إنك مش قد وعودك.. كل حاجه اتكلمت فيها إنت مش قدها!

لم أعلق أو أدون شيئًا..

تركته يفرغ ما لقنته إياه.. بعد رشفات من الشاى أكمل:

ـ إنت مش قلت هتشتغل فى وزارة الزراعة أبناء عاملين مكان والدك ومحصلش؟ إنت مش قلت.. إنت مش قلت.. انت مش قلت؟...

تبًّا لى حقًّا!.. لو لم أكره ذلك الشخص الذى يتحدث عنه لأكونن الخاسر! لو لم أطعنه بخنجر غير مستقيم كى يصبح الألم مفجعًا؛ فلأكونن السبب فى انتشار ذلك المرض اللعين المسمى معتز. يجب أن يموت من لا يملك حق تنفيذ الوعود! الوعود للرجال فقط، وتخلف تنفيذ الوعد للنساء فقط. يجب جز عنقه من القاع، والتمثيل برأسه أمام الساحات الواسعة كى يراها كل الخلق!!

قال:

ـ فين الوظيفه الثابته اللى حكتلها عليها؟.. فين شغل الحكومه؟.. بنتنا لازم تكون متأمنه.. شوف يا بنى إنت صرفت إيه على بنتنا ومش هنتأخر عليك.. مبنحبش اللى ملوش كلمه.. فين وعودك.. فين؟!....

فلاش باك.. ذكريات تجاوزاتها المستمرة نحوى ومحوها بالطبشور كعادتى. ذكريات صراخها الدائم فى وجهى.. ذكريات الألم.. تمر أمامى وتعبر كعبور القوارب الحزينة المتواصلة بلا انقطاع! حسنًا فلنتفق جميعًا أنها تريد قطع الصلات التى كانت تربطنا ببعضنا البعض منذ دهور. لذلك وحينما أخبرتها بحديثى مع أبيها قالت مثلما قال عم شكشك(*) بنفس ذلك الأداء:

ـ لااااا مينفعشى... نكمل.. مع.. بعض.. بعد الكلام.. ده.. بابا وإنت.. خلصتوا.. الكلام.. كله.. كل شىء نصيب.. كل شىء نصيب مينفعش نكمل.

كل ما أفعله هو تحمل الألم، والضعف يسحبنى رويدًا رويدًا إلى القاع دفعة واحدة. الضرر قد وقع بالفعل، والغرور لا فائدة منه، فكل شىء يؤدى بى إلى الهاوية. اكتشافك بسقوط قناع الآخر لا يجدى. اكتشافك بأنك مجرد هاوٍ ساذج لا يصلح أيضًا. لا شىء يجدى وأنت تهوى إلى القاع، فلا حبال ولا سلاسل تستطيع الإمساك بها كى تنجو! فهى تستمع وتتخذ قراراتها مسبقًا، فلا فائدة! كل شىء أصبح ضبابيًّا.. كل شىء أصبح مشوشًا.. فكل الصدمات والآلام سواء.. فكم من موتى لا تشعر أجسادهم بالألم عندما تفقد أرواحها!

(*) مسرح مصر.

الفراق:

وانتهى أمرى! منذ قبلت يدها كلما رأيتها فى السيارة، ونحن نسير، ونحن فى السينما، ونحن فى.. ونحن فى.. منذ انحناءة ظهرى لربط حذائها أمام العامة. ينظرون إلى ذلك الحب الصافى النقى، الذى ألغى الرجل ذاته وأحنى كبرياءه كى يربط حذاء من كان يظنها طفلته!!

منذ..

ومنذ..

الآن أتقبل الأمر.. المرأة عندما تبعد أحدهم عن مجاورتها فإنه لا يعود لها مطلقًا. انتهى أمرى منذ زمن ولا يخبرنى أحد!... لم يخبرنى أحد رغم أنها أخبرتنى ولم أصدقها! وها أنا أعيش منعزلًا بلا ونيس.. بلا أب! لقد رحل عن الدنيا ومن فيها. بلا حبيبة! فقد رحلت هى الأخرى مثلما رحل الآخرون، لا يجاورنى سوى العتمة والظلام!!

* * *

الليلة الأولى بعد الفراق:

ألا يطلق رنين الهاتف حاملًا رقمها المعتاد يطلب النجدة؟! يطلب صوتى! تود إخبارى أن هناك خطأً وهى مستعدة تمامًا لإصلاحه! فهى تحتاج لوجودى وبشدة! الليلة الثانية: أنظر ألف مرة إلى الهاتف، عسى أن يظهر ذلك الرقم من جديد، وتطالب بعودتى مرة أخرى ولم يكن! الليلة الثالثة، والرابعة، والخامسة.. والحادية عشرة.. لا شىء.. لا شىء! الأيام تترامى خلفى كجليس داخل القطار يراقب المدينة وهى تبتعد وتبتعد عن ناظريه.. الهاتف صامت، والغضب متصاعد. لو حدث ورأيت ذلك الرقم

سوف أصرخ بالتأكيد! كيف تتركنى كل تلك الأيام والساعات؟! أعمل بغضب وليس بإخلاص كما هو معتاد. الأيام تمر ببطء، والهاتف خارج نطاق الرنين. يطلق الهاتف صراخه أخيرًا!.. لأجد صديقى!.. تبًّا لذلك! هل هذا وقته؟! اغربوا عن وجهى أنا فى انتظار مهاتفتها.. هى فقط. الليالى مملة لا تترك آثارها سوى على جفنىَّ المتشحين بالسواد.. مغادرها ظلام النوم قلق وخيفة وترقب! الأيام أصبحت شهورًا، والليلة تلتصق بليلة أخرى كذيلها. ثلاثة أشهر على الفراق! الأصدقاء!.. لا مفر.. أجريت أول محادثة مع أقرب الأصدقاء أمانة وصدقًا.

وغباء! فقال: ألا تفهم أيها الغبى بعد؟! لقد تركتك وانتهى الأمر. ألا تفهم؟! لقد نفد رصيدك وقُذف بهاتفك فى قاع النيل.. لو عثرت عليه فأنت محظوظ أو معتوه!

لن يرن هاتفك بعد باسمها، ولن يبوح لك برسالة تحمل الاعتذار المرغوب! لا شكوى إليك يا صديقى.. لم تتمن أمنية إلا ولبيتها. تمنت كل شىء، وكنت لها كل شىء! جعلتها طفلة ولم ألحظ نموها؛ فنمت وبلغت فوق جثة. ها هى الآن تغادر عبر سفينة الرحيل المعتادة.

تعبر عبر ذكرياتى وآمالى وأحلامى، وتكسر خلفها (قلة) مع قبلة إطاراتها فى الهواء بكل براءة وهدوء وطفولة معًا. وذهبت كى تضيع على شواطئ أخرى بلا هدى.. يذكرنى بنغمات أغنية أعشقها.. لا أتحمل! غيابها يقتلنى!. كانت روحى بل وأكثر!. الآن علمت مقدار الجرح! هى لن تفهم! إنها لا تدرك قيمة الأشخاص فى دنياها لو رحلوا، ولا تدرك قيمة وجودى معها مطلقًا. هذا ما شعرت به تحديدًا بعدما أرسلتُ إحدى زميلاتى لمهاتفتها. قالت لى بكل مواساة أرفضها، وأرفض أن يشفق علىَّ أحد، بعدما أظهرت ضعفى أمامها. قلت لها: أنت فتاة مثلك مثلها، ستدركين من نبرتها رغبتها

فى البقاء معى مجددًا، كل ما تفعله هو إعطائى درسًا ليس أكثر؛ كى أعلم قميتها وقد علمت! أنا أثق فى هذا!

تصمت الزميلة، وأجابتنى بسؤال لا يوجد له محل من الإعراب! قالت:

ـ معتز أنا هقولك على حاجه، إحنا كبنات لما بنوصل لمرحلة اليأس والملل بنبعد.. حتى لو روحنا كانت فى المخلوق ده.. حتى لو طالت العشرة بينا عشر سنين.. مش زيك تلات سنين وداخلين فى الرابعه كمان.. إنت أكيد وصلتها لمرحله قفلت منك.. معتز هى فعلًا قفلت منك تمامًا!.

أجيب بكل لوعة، لم أحاول إخفاءها حتى تصدق مدى حبى لها:

ـ إنتى مش عارفه حاجه! هى وحشششششااانى قووى.

تقول:

ـ أنا مقدره شعورك.. بس متوقفش حياتك عليها اييييياك!.

ـ هى وقفت فعلًا!

تتغير نبرتها للغضب وهى تقول:

ـ تبقى حمار وغبى! معلش أعذرنى أنا أول مرة أشتم! الحياة عمرها ما بتقف على حد وأنا مقدره شعورك فى الوقت ده.. جرحك مفتوح بتتألم وبتتوجع.. بس الوجع لازم تتعلم منه علشان تفوق.. هى هتسيبك تتوجع، واحتمال كمان تسيبك ترقص على السلالم! لا عارف تطلع ولا تنزل، وتستناك تفشل علشان تصدق نظريتها فيك.. مش انت قلتلى إنها قالتلك نخلينا اخوات! هسيبك فتره وأنا اللى هرجعلك! سيبلى الاختيار.. الكلمه وحدها تجنن أجعص راجل فى الدنيا!!

إقول باهتمام حزين:

ـ يعنى بتكدب؟!.

تجيب:

ـ بتعذبك زياده.. عرفت نقطة ضعفك وبتدوس عليها.. إفهم بقى.

أجيب فى سرعة:

ـ هى عايزه تكون فخوره بيا.. أنا عارف هعمل إيه.. أنا هفتح محل جمب الشغل الأساسى، صدقنينى دى كانت رغبتها من الأول.. هى كانت عايزانى أشتغل فى وظيفتين.

لم أعتد صمتها مطلقًا، فأجابت بمنتهى الهدوء:

ـ إنت مش عايز تفوق! عمومًا إعمل اللى يحلالك، بس نصيحة أخت، إحنا زمايل من أيام الجامعه، دى أول مره أشوفك بالحاله دى! كنت دايمًا بترفض تعترف لوحدك بحبك أو إعجابك، وأنا كنت عارفه إنك لما تحب هتقع على جدور رقبتك. أحسنلك صدقنى تنساها وفكر بمستقبلك، بس الأيام اللى جايه، إتجوز يا معتز. بنات الناس كتير، إرميها ورا ضهرك زى ما هى عملت. أخدت أحسن ما فيك ورمته.

ـ خدت قلبك!!

(حديثى مع نفسى)

(فاقد الأمان.. ملوش أمان).

عندما تفارق فذلك يعد جرحًا قاصمًا صعب الالتئام! عندما تستمع للموسيقى الحزينة، أنت بهذا الأمر تستمتع بسادية بالعبث بجرحك المفتوح، تستمتع باسترجاع ذكريات عذابك. وها أنا أستمتع.

بكل سادية!!



على نغمات موسيقى:

(كان صديقى وكانت حبه الأبدى.. بل كان حبهما حكاية البداية.. واستغرب الناس! كيف أن القصة انقلبت إلى خصام، إلى هجر، إلى نكد!).

صديقى يجلس جوارى، أقص عليه قصة البداية والنهاية، كيف فعلت! وكيف كان الرد! كيف كان انتقامها عميقًا! أكرهها! هل له بالحديث معها كى يقوم بربط الأحبال المقطوعة؟! هل له بأن يخبرها كيف كنت مخلصًا لها؟! هل له أن يخبرها كم يشتاق إليها حقًّا ويتمنى أن يموت فى أحضانها؟! جن صديقى! وقال لى بمنتهى الحزم: انسها وخيرًا لك أن تقوم بربط نفسك بأخرى، فلن تنسيك إياها سوى امرأة أخرى..

هل أن تلك الفكرة مستحيلة؟! كيف يحتل مكان القمر بعض النيازك الصغيرة المتحطمة؟! فلا يوجد مثلها على سطح الأرض. حتى لو قاموا باستنساخ نسخة طبق الأصل منها. إنها خير من الذهب، وأثمن من لآلئ البحار، وأنقى من مياه الأنهار. إن كليوباترا سلمتها العرش منذ ساعات. أكرهها، وأذوب فى حبها! كحبات الفوار البرتقالية فى الماء العذب!

لم يفلح الصديق سوى فى كسرى ومضاعفة جراحى وتعميقها أكثر وأكثر .. الزميلات..

حسنًا فعلن! الأولى أجرت معها مهاتفة، وكانت الصدمة! محادثة أخرى يائسة كالأخرى!

تقول الزميلة الأخرى:

- معتز.. ركز فى شغلك ومتفكرش فيها تمامًا الفترة اللى جايه دى خالص.

- يعنى إيه؟! انتى فهمتى منها إيه؟!

- هى لو مكنتش عيزاك مكنتش قعدت معايا ساعة إلا ربع!

- يعنى هى عيزانى ولّا مش عيزانى؟! أفهم..

تعود ذاكرة الفلاش باك آلاف المرات.. كيف كانت آسيا تعتنى بى كوليدها! كيف كانت تربت على كتفى بكل حنان قائلة (أنا معاك متخفش) كانت تقول: (مفيش حد هدخلو بينا أنا وانت بس هنعرف نحل أمورنا.. أنا وانت هنكمل بعض.. غلط إنى دخلت أهلى فى حل مشكله كانت بينى وبينك.. أوعدك مش هتكرر). الألم يصيبنى فى موضع لا أدرى مكمنه بالضبط، لكنه مؤلم وقاتل، ألم النفس أقسى من ألم الجسد! ألم يذبح ولا يترك أثرًا لموضع السكين. وذلك كان عقابًا لا يستهان به مطلقًا. لقد أوشكت على.. أوشكت على شىء خطير! هل وصل بى الحال حد الانهيار؟! ماذا فعلت بى؟! كيف أوصلتنى لذلك الحد؟!

هل لو كنت مكانها كنت اقترفت فعلتها وفعلتها؟! لقد راودنى أكثر من مرة ولم أفعلها. بل لم أفكر! كل ما أفعله يدل على حب وإخلاص وإنكارى لذاتى، حتى أخذتها وأخذت روحى ورمتها من أعلى سفح الهرم الكبير، ينتشلنى صوت (أم كارما) قائلًا بقلق:

- يا معتز.. أنا بقولك كمل فى سكتك وانساها الفترة دى تمامًا فكر فى نفسك وبس.

أقول مستسلمًا:

- يا ام كارما فهمينى أحطها فى الخطه اللى جايه فى حياتى ولّا لأ؟ أفهم.. فهمينى!!

تصمت قليلًا، يبدو أنها تحضر لكلمات غير مؤذية.. كلمات ترفق بحالى، فقالت بهدوء:

- هى بنت ناس أوى ومحترمه ومقلتش عليك أى حاجه وحشه.. بالعكس هى قالت إنها مش هتلاقى واحد زيك ويحبها زى ما انت بتحبها.. بس حاسه إنها خلاص مش عايزاك.. يوووووووه مش عارفه بقى يا معتز!.

بنفاد صبر أجيب:

- يووووووووووه يا بنتى فهمينى. إنتى حاسه إنها عيزانى بحسك الأنثوى؟ إنتو بنات زى بعض بتفهمو بعض.

- هى قالتلى إنها تغاضت عن مستواكم الاجتماعى المتفاوت و..

ماذا قالت؟

مصعوق يكاد الألم يخترق قلبى بسيف مسنون حاد.. هل قالتها؟!.

لقد كنا مثالًا للحب المثالى الذى يكره العنصرية والطبقية، لا يوجد مثل تلك الهراءات فى علاقتنا من قبل! هل تؤذينى مرة أخرى؟ ماذا فعلت؟ أحببتها فقط! وكان ذلك ردها! أخرجتها من جحرها الغارق فى الظلام إلى النور والحياة، وأدخلتنى بكل يسر بموضعها. أتمنى الموت ولا أسمع مثل تلك الكلمات التى تقتلنى حقًّا!

تقول:

- معتز.. من الآخر وتاخد رأى أختك.. شوفلك حد غيرها يشيلك فوق راسه ويقدرك ومسيرها تعرف قيمتك.. إنت ربنا هيعوضك خير بإذن الله.. متقلقش.

* * *

الظلام..

الصمت..

الوحدة..

هم الرفاق اليوم. لقد أصبحتُ حطامًا بعدما فقدت كل شىء بفقدانها! كانت كل شىء! جعلتها كذلك منذ دهور! أشفق على نفسى كثيرًا بعدما قللت من شأنها أمامها، وغمستها فى الأعماق! عندما أتذكرها، عندما أحببت شيئًا أكثر مما أحببت نفسى! وظلمت نفسى عندما عشقت عشقًا ظننته أبديًّا لا يموت، عندما جعلنى حبها من شخص عادى.. لشخص يتحاكى به البشر.. مشهورًا كما تقولون! أشفق على نفسى! الآن القمر نصفه مظلم، يتوارى خلفه النجوم التى كانت كحبات من الوميض الذهبى المتلألئ.. تكمل النصف الآخر بهدوء واستحياء ضوءه. تأملت تلك الورقة المطبوعة، قمت بكتابة خطاب يذكرها بما وعدت قبل الارتباط الرسمى، ذلك العهد الذى كان بينى وبينها، كل كلمة تصدر كالخنجر المسموم!

كانت الكلمات كالتى:

(حبيبتى آسيا)

الأفكار كثيرة، أود طرحها ونشرها فى البلكون، عسى أن تجف! أضعها وأنسقها من جديد، فذلك للأفكار. ما بالك بالمشاعر؟! لسبب غير معلوم، وددت إرسال خطاب لكِ عبر البريد، ولكننى أخشى بطش أبيك، فيجعلنى أحرث محصول السنة كاملًا لفعلتى! ما علينا. أود وصف مشاعرى نحوك بأسلوب لم يخطر على بال المحبين من قبل! ما هو الحب؟! حقًّا لست أدرى! ما كنهه؟! ما طبيعته الكونية؟! ما أساليبه؟! كثيرة يا للغباء! حبيبتى.. أنا لا أدرى ما هو الحب! حقًّا لست أدرى! قفزة «السقا» داخل النهر لم تفلح فى وصف الحب كما أعلمه! بل كلمة أحبك آلاف المرات لم تعبر عما بداخلى، ترانيم الأغانى أستمع إليها يوميًّا لأدرك معانى الكلمات.. فقط إنها وجبة لكل البشر، ولا يدرك أحد ماذا يُقصد بكلمة الحب بعد! لا تُلخص فى أغنية، ولا كلمات، ولا همسات. إذن ما هو الحب؟! أتعلمين؟!!!! ها أنا أصف شيئًا ما. عسى أن تجدى! نظرة عينيك تصيبنى برجفة طفل فقد أمه بالصحراء! فاقدًا الأمل فى العثور عليها! حاولى اكتشاف شعوره إذن بعدما يراها من جديد! صفى لى الأمل والاشتياق والحب.. لا بل هو نجاة الغريق.. ليسحب جميع الهواء فور صعوده من أعماق البحار.. حقًّا لست واثقًا من وصفى.. تخيلى معى مشهد الميت الذى يعاود تفجر الدماء داخل جدران قلبه الضعيف ومعاودة ضخ الدماء فى جسده من جديد ما إن يهب من قبره!.. تخيلى أنتِ كما تشاءين!!.. ملمس يدك يصيبنى بأمراض خطيرة لا أدرك مداها! خفقان بالقلب، ارتفاع فى أوتار الخوف، ازدياد غير طبيعى بالمشاعر الحسية. ما تسميه أنتِ بالحب.. فأنا لا أدركه حتى الآن. فقط قمتِ بنقل دمائك إلى عروقى؛ فأصبحت لا أشعر سوى بمشاعرك وأحاسيسك الدافئة، الممتلئة بخفة ومرح طفولة الصغار، ولهب اشتياق الكبار، أنت طفلة بجسد امرأة مكتملة الأنوثة! حتى أنى أخشى الاقتراب منها قبل موعد الحصاد! فأضعها فى صومعة داخل جدران

قلبى، حتى يأتى ذلك الموعد،أنتِ عن ماذا أتحدث؟! حسنًا.. أتحدث عن المواصفات.. عجبًا! هل للمشاعر أوصاف؟! حسنًا حسنًا! ها هى داخلك، تحمل حنان الزوجة، واهتام الحبيبة، ولهفة العشيقة أنثى تحمل جرأة وفكرًا وثقافة، شريكة العمر، يجتاحنى رحيق لهب أنفاسك.. بالواقع.. تقولين أحبك آلاف المرات، تدركين معنى كلمات التخشب اللحظى! ذلك الشعور الذى يصاب به الميت قبل أن يفارق جسده، فلا أجد كلمة واحدة تناسبك بعدها، إلا أن أكون ملكًا! أنصبك مليكتى التى لن يشاركنها العرش جوارٍ أخريات! نعم الجميع من وجهة نظرى جوارٍ.. مليكتى.. الملكة.. حسنًا حسنًا وجدتها! مواصفاتك إذن مواصفات الملكة! أسبح فى مخيلتك لتذكري أجمل مصورة لملكة متوجة.. لن تجدى جمالًا يضاهى جمال عينيك الملساوين! حقا لم أجاوب على سؤالى الأول.. أنا كذلك كما قلتِ لى البارحة: لا تدع فرصة. فنسيت السؤال.. ما هو الحب إذن؟ أين الكلمة المناسبة؟! لا أدرى! فقط أقول أنا أحبك؛ لأصف قطرة ما يكن داخلى، ولا أجد معانى الحب الحقيقة، إذا لم أكن وصفته من قبل! حبيبتى.. تدركين معنى أن أعيش من أجلك، لحمايتك، لأضع مظلة الأمان جانبًا وأصبح انا الأمان، لأعاهدك الوفاء، طيلة عمرى لكِ، لأضع قسمًا جديدًا لم يضعه غيرى، قسمًا موضوعًا حوله (من أجلك فقط سوف أعيش). أعاهدك أن أتخطى لحظات الحمق، والجنون، والملل، والروتين القبيح، أشاركك لحظات الحزن، والفرح والجنون والحب، والعشق، وأسلمك روحى على طبق من فضة. أشاركك مشاعرى،واعذرينى إن أخذتنى الأيام قليلًا، أنت تعلمين مهام الزوج. إذن ها أنا أضع حدًّا لتساؤلاتك، كل ما سبق يعبر عما بداخلى من حب! ليت الكلمات تكفى! ولكن أنا أحاول التعبير. لا يطلق أحد الرصاص على رأسى، فأنا فقط أصف مشاعرى.. العزيزة.. تعلمين أن مهامى وضع الأفكار لقصصى.. ويا للعجب!

لا أقدر على وصف مشاعرى البركانية! هكذا وضعت مواثيق تثبت ما يكن بى! أنتِ تجرى داخلى مسرى الدماء، وذلك يكفى ألف مرة من قول أحبك أحبك أحبك، فهى دمائى، أحبك أصبحت وريدًا داخلى! إذا لم يكن اسم الوريد يحمل اسمًا فعلًا (آسيا).. .. إلى حبيبتى آسيا.. أعدك أن أكون ذلك الزوج.. حبيبتى.. تلك الوثيقة احتفظى بها، أو اطبعيها، فأنا على أتم الاستعداد للاعتراف بكل حرف بها!

«صديقكِ، وحبيبك، وعشيقك، أخوكِ، ووالدكِ.. لولا أنه لا يزحزح موقعهما أحد. حتى أنا».

(حبيبكِ دائمًا وأبدًا.. معتز).

أنظر إلى تلك الورقة التى قمت بطباعتها مسبقًا، نسخة لها ونسخة لى بعدم الاكتراث! وأمزقها بكل هدوء، بكل ما فيها من سذاجة محب كان حيًّا يومًا ما! والآن انتهى وذهب مع رحيلها! أصبح لا يحيا سوى فى تلك الذكريات القديمة! نعم أصبحنا ماضيًا، لن تجمعنا لمسة يد تحمل الحب والأمان مرة أخرى. لن أسمع صوتها العذب مرة أخرى، لن أشكو الدنيا لها مرة أخرى، لن تكون! لن تقول أحبك مرة أخرى. لقد أصبحت ماضيًا لإحداهن منذ تلك اللحظة، سوف تتحاكى عما قريب عنه بكل عجرفة وتقول وتقول.. وأنتم تعلمون ماذا سوف تقول! هى لا تثنى على أحد، لا تحب أحدًا. ومن بعدى؟! لا أحد.. لا أحد!.. وإن عثرت على أحدهم! كيف؟! لا أتخيلها مطلقًا!. كيف تتمسك بيد أحد غيرى؟! كيف تعطيه ابتسامتها وغيرتها وبراءتها؟! كيف تقول له أحبك؟! لا أستوعب الأمر بعد! هى الآن قررت اختيار بديل أصلح غيرى، ويجب تقبل الأمر الذى لا يقبل! لا تتعجبوا! الانفصال معناه الحقيقي: أن هناك بالمستقبل غيرى

وغيرك، سوف يحتل مكانى ومكانك عما قريب، لن نكون سويًا مرة أخرى، أحتفظ بذكرياتنا الجميلة، هى فقط من ستحيا بعد فراقنا! شيء أشبه بالموت البطيء! سوف يعيش كل منا بوشم الفشل طيلة عمره يا عزيزى. سيكون كلٌّ منا مع أشخاص غيرنا، ولكن بنصف روح! ستدرك أنه لا وجود لشيء يدعى الحب، وعودة الحب بعد جرح عميق لا تعنى شيئًا مطلقاً! الحب مشوه، أصبح مشوهًا. إذن الفراق عادة أرضية منذ الأزل، منذ خُلق آدم وحواء. لذلك يجب علينا ترك جميع تلك الأشياء التى نتعلق وبشدة بها، ونتخيل ماذا ستقول العزيزة آسيا للرجل الثاني! سوف تخبره بالبداية ما حدث، وكيف أحبت ذلك الشخص الكسول الكاذب، الذى لم يعتنِ بحبها! كيف كان رجلًا كاذبًا لا يفى بوعده مطلقًا! هى لا تحب الكذابين، ولا تفضل مخلف الوعود. كيف كانت مساندة وهو خذلها بكل تأكيد!!

كيف أفقدته؟! منزل وحلم أى شاب مصرى.. (منزلًا) كيف حطمته تحطيمًا وسعى خلفها كالجرو لينال رضاها ولا تقبل! إنها لا تحب الفاشلين الكسالى. إنها تريده كذا وكذا.

تبًّا! هكذا تحولت، من سلطان مرصع بالجواهر يتلألأ حول عرشه الذهب والياقوت والمرجان لخادم عفن لا يطيقه أحد. وبالتحديد هى.

* * *

لقاؤنا الأخير..

بالطبع كان هناك لقاء أخير، وهو مسك الختام والنهاية، علك الآن تشعر بذلك الخنجر المنزوع منذ زمن، تاركًا الدماء تنفجر بكل جبروت من موضعه، خنجر ملقب بـ (حبك الأول!) كم تمنيت أن يصبح حبك الاخير! ولكنه القدر! أين كنا؟! حسنًا ذلك اللقاء لم أنسه!

ولن أنسى ذلك الدرس، اليوم يوم الفراق! منذ رؤيتها وقلبى يرتجف، أعلم أنى سوف أبكى، أعلم بأنى أحمل بوادر الانهيار بالفعل! وهى ستكون صامدة كالحجر، سوف تتلاعب بمشاعرى كالدمية لو أعطيتها الفرصة، حبيبتى الأبدية، وحلم العرش القديم، منتهى الحلم وبدايته. حسمت الأمر، تركتنى فترة لا بأس بها، قاربت على أسبوعين كاملين، كى يتم اللقاء فى ذلك الكافيه الشهير بشارع الهرم.... كل شىء يصدر منها هو مصطنع بالشكل الحرفى. ابتسامتها المجاملة ازدادت أكثر وأكثر، تحمل لك الكثير من الشفقة وكأنك تحمل عاهة مستديمة، وتظهر أمام الجميع دون خجل. قولى لى يا من حبك يسير برفقة الكريات الحمراء والبيضاء.. قولى لى ماذا تخفين خلف ابتسامتك المقيتة فى ذلك الوقت؟! قولى لى إن ما فعلت هباء. قولى لى إنك ستتركين من يعشقك عشقه لذاته. قالت:

ـ إحنا مننفعش لبعض.

فلاش باك..........

لا أدرى لماذا تذكرت ذلك الموقف الغريب حينما كنا فى سيارتها تلك حينما قالت:

ـ إحنا الاتنين شمس وقمر.. طريقين سفر.

أقول:

ـ بتقولى إيه؟!

ـ دى أغنيه لمسار إجبارى.

ـ آه.

عدت من حالة الفلاش باك لموقعى الأصلى كمستمع.. قالت:

ـ أنا وإنت مختلفين!.

لماذا يعود ذهنى لتذكر فلاش باك آخر عن كلماتها الحانية حينما قالت بنعومة فى لحظات الصفا التى كانت بينى وبينها:

ـ عارف يا حبيبى إيه أحلى حاجه فى علاقتنا؟

ـ إيه؟!

تقول بود مصطنع:

ـ إننا مختلفين.. أنا وإنت كل واحد ناجح فى حاجه بيحب حاجه غير التانى، ودى أحلى حاجه فى علاقتنا. بحبك أووووى!.

أنظر إلى عينيها وأستمع ولا أنطق، تقول بكل نفور رأيته تحمله لغيرى من البشر، سواء أكان إخوتها أو زملاءها بالعمل:

ـ بص يا معتز.. إنت مبتحبش شغلى.. أنا شغلى فى ناس رجاله كتيره وانت بتغير.

فى كل كلمة ينطقها فمها الصغير أسارع بالعودة للماضى ـ ماضينا ـ حيث كانت تقول:

ـ أنا مقدره غيرتك يا حبيبى.. أومال أنا حبيتك ليه؟ أوعدك محدش هيملس شعرى تانى غير بنت. هاجيب ماكيره وهبقى أبلغهم بكده...

أنظر إليها وعيناى تصرخان بدموع مكتومة! هل هذه أنتِ؟! لم تلبث أن فاضت عيناى بدموع لا تدرى شيئًا سوى أنها تهبط!!

ـ معتز.. أهلى اللى مش هتقدر على طلباتهم أنا كنت غلطانه لو خليتك تكمل.. هحرقك.

أعود للماضى ولحديثها المعكوس:

ـ أنا هقنعهم.. ملكش انت دعوه بابا.. إنت قولو قدامى كذا وكذا وهما هيوافقو هما ميهمهمش الكلام ده.. اللى يهمهم بنتهم عايزه إيه متقلقش.. متخفش!!

ـ إنت قدها وقدود.

ـ أنا معاك.

ـ لو لحم على عضم هفضل جمبك.. اطمن..

ـ بحبك.. برستيجك أدهولك وسط الناس.. واسحبو منك أول ما نبقى لوحدينا ههههه فى بيتنا.

ـ ربنا يعينك إنت تعبت أوى النهارده.. ربنا معاك.. لما تصحى كلمنى.

ـ حبيبى وحشتنى... بيبى أنا مسافره أول ما اكون على البحر هتصور وابعتلك الصور يا ريتك معايا.

ـ متتأخرش عليا.

ـ سلامتك ألف سلامه.. خد بالك على نفسك لحد ما آجى آخد بالى أنا منها.

ـ حبيبى وحشتنى متغبش عليا تانى كده.

ـ أول ما تروح كلمنى سلام يا بيبى.

ـ المكان كان ناقصك.. بكره نروحو سوا.

ـ عايزه نخش بكره فيلم... آه أنا سامعه إنو حلو يلّا بينا.

ـ ألف مبرووووووك يا حبيبى على نجاح المقاله بتعتك يا رب بكره تكون من أحسن الناس.

ـ مش هسمح ليك تكتب حاجه نص كم.. الحاجه اللى تكتبها تبقى سوبر تطرقع.

ـ أنا معاك لحد ما تتحسن وتقف على رجلك متقلقش.

كشريط مسجل عرض دفاتره أمامى دفعة واحدة كالمعاقب، يود قول: هذا هو ماضيك أيها الغبى، وتلك اللحظات هى حاضرك أفق من تلك الغيبوبة المسماة حبًّا..

يعرضه أمامى ولا أرى كلماتها التالية:

مبقتش أحبك زى الأول إفهم بقى.. حذرتك أكتر من مره وقلتلك هييجى علىَّ وقت أفضى فيه كل حاجه.. لو استمريت على المنوال ده.. هزهق.. همل.

قلت بسخرية:

ـ وتسيبينى؟!

ماذا! وهل بلغ صبرك ذروته؟! هل المهلة انتهت؟ من كان يستحق أن يكون بموضعك أنا أم أنتِ؟ من تحمل وكان يريد التحمل أكثر وأكثر من؟ مجرد شىء يدعو للفخر تريدينه وفورًا لتضعيه بوجوه الناس كى تقولى وتدعى بكل فخر: هذا هو حبيبى، وهذا هو ما سأحب دومًا بعدما كانت روحى هى الأساس ولا تقدر بثمن. أم.. هل أصبحت عاجزًا؟! هل خلعت عباءة الرجل الخارق.. عندما تنظرين إليه بنبرة تحمل الفخر. أقترب من يدها لأذكرها بشىء من الحنين لتبعدها بكل قسوة. قالت لى

آلاف الأسباب المتراكمة، وضعتها أمامى كالحاجز المنيع كى لا أحاول اقتحامه مرة أخرى. كيف؟ كيف أصبحت تلك اللحظات الخاتمة ونهاية روايتى معها؟! كيف أحببتها؟! كيف؟!

(خطاب آخر لم تقرأه آسيا)

عزيزتى آسيا وأما بعد.. رغم كل ما فات.. ورغم ما فات.. بعد قرارك الأخير بما فيه من صواب واضح وخطأ ملموس قد اقترفته باستمرارى فى تلك العلاقة الضبابية التى لا تحمل أدنى ترابط، وذلك وحدى وأتحمله كليًّا! منذ كان القرار قرارى أنا فقط! لعلمى أنك غير عابئة بأى مسؤولية ولا تتحملين بفعل بيئتك المحيطة واخترت الاستمرار والمجازفة! ولأنك لا تمارسين فنون البراءة إلا مع من يملك احتياجاتك، وما إن تنتهى ينتهى خطئى.. كيف كنت أعطيك الضوء الأخضر فى كل شىء مدعيًا أنى وبتلك الأشياء أعطيك ثقتك فى نفسك أكثر وأكثر؟!.. فكيف كنت جاعلك على صواب طوال الطريق!.. وذلك حقًّا كان خطئى! أعطيك الثقة فى قراراتك المنقوصة الخبرة يعد أكبر أخطائى وذلك ليس علاجًا بل إنه التمادى فى المرض.. إعطاء من لا يملك حقوقًا حقًّا مشروعًا.. ولكن ورغمًا عنى مؤيد لقراراتك، أحمق، محبًّا مغموسًا فى خمر عشقك عنوة. إذا تغاضينا عن الحماقة، وإذا تغاضينا عن تخليك عنى آلاف المرات على سبيل المزاح أحيانًا وتمسك الطفولة بكِ، حماقاتك المتكررة، قراراتك التى يشوبها آراء الآخرين. كلانا مثل الآخرين بل وأكثر عزيزتى! لقد نشب فى علاقتنا الآلاف والآلاف من الأسهم القاتلة بفضلك وفضلى. هيا لنتقاسم الأخطاء معًا. حذرتك كثيرًا أنك لن تجدى من يتخطى أخطاءك الطفولية مثلما كنت!.. وإن علم الآخرون بذلك، فسوف تكونين فى منحدر الحسد البين. وأنت لم تكتفِ بذلك فقط. أنت تملكين شيئًا فريدًا ولا تستطيعين الحفاظ عليه،

تملكين محبًّا مخلصًا، يوم الموت تحت راحتيك.. تخشين فقدانه أحيانًا، فلو فقدتيه سوف تصبحين الخاسرة مثلما قال الآخرون لك بكل حزم. أتملكين بذرة الياسمين ولا تدرين أين تضعينها! بالأرض الخصبة؟! أم بالأسفلت الصلب؟! فوضعتيه بأعماق البحار! أليس ما فعلته أنا خارج نطاق العقل إذا رجحتِ كفة العقل بالأخير؟! عقلك الذى لا يدرك سوى أنه على حق! ومن أعطاك الحق لفعلتها.. لم يكن سواى والمغردون من حولك. تحملت ما لم يتحمله أحد. كنت أرى بنهاية الطريق نورًا، فقطعت نصفه

ولم أصل إليه.. تحملت بإنكارى لذاتى حتى أصبحت لا أرى نفسى.. ولم أرَ سواها، فطُمس صوتى، وفاز المغردون وفزتِ! أنسى كل ما فات وكل ما قيل! لم أنس مطلقًا!!. كلا لم أنس ولن أنسى. كم قضينا أوقاتًا معًا حقًّا لا تنسى! شاركتنى فى لحظات الفرح والأحزان معًا وكنتِ لى خير عون، وكنتِ مؤشرًا فى ما وصلت إليه فى اللحظات الراهنة.. أتقبل بكل لوعة فراقك، وها أنا أسبح على الأمواج بلا هدى بعدما انتزعتِ قاربى. لم ترى منى ما كان يستحق تركى.. فليكن وأما بعد! لحظات لا تنسى ولكم تمنيت الاحتفاظ بها وبكِ ولم أفلح! فالحياة لا تعطى المرء ما يتمناه فى بعض الأحيان عزيزتى. لم أذكر حسناتك ها هنا أو هناك لأنى مطعون.. ولا تزال بقعة الجرح تنزف وتملأ المكان ضجيجًا. بقعة غيابك تحمل فراااااااااغًا كبيرًا داخل صومعة قلبى. مشاعرى متضاربة، أعلم.. عزيزتى.. غيابك أطاح بى.. أصابنى بالجنون، بالخبل، أفقدنى البراءة، وذلك هو الأهم. لم أعد أنا ذلك الشخص الذى عاهدتيه، بل أصبحت رجلًا آخر خُلق من أجل العمل والصراع مع الحياة. أدمنت العمل مثلما أدمنتك تمامًا. أريد النجاح فقط.. النجاح فى معترك أخوضه لأجلى تلك المرة وليس من أجلك. فلتعلمى أنه لا مكان بقلبى لأنثى غيرك، فلن أنساك. لقد وضعك الله طريقًا، إحدى الطرق التى لا بد أن نسلكها..

أدعو الله أن تجدى ما تتمنى. من بعدك أنا لا أستثنى على أحد، لا أمدح أحدًا. لا أحد.. لا أحد، فحبك درس لا ينسى بسهولة! حبيبك (السابق) تعلم ذلك الدرس! أتدرين ما هو ذلك الدرس؟! تقدير المرأة! المرأة تحتاج لمن يقدرها ويحتويها ويغفر لها زلاتها الصغيرة.. المرأة تحتاج لرجل صادق لا يكذب، حتى لو كان على سبيل خسارة المرأة التى يحب! رجل يتحمل صدق كلماته، تحديدًا وبالأخص كلمة (أحبك).. أحبك تعنى الأمان، أحبك تعنى الإخلاص، أحبك تعنى المثابرة دون أدنى يأس، أحبك تعنى الاستماع الدائم لها وسماع شكواها من الدنيا ومنى، أحبك تعنى أشياء أكثر فوق الاهتمام، أحبك ليست مجرد كلمة، والصدق هو أبلغ الفعل. حبى لكِ ليس حبًّا.. بل هو اختبار لا بأس به! حبى لكِ كان اختبارًا لإخلاصى. حبى لك سوف ينتهى ليبدأ عهد جديد خالٍ من المشاعر المتضاربة مع حبيبة أخرى أكثر وفاءً وإخلاصًا وحبًّا. حبك كان بداية ولم يكن حتمًا النهاية.

إمضاء: معتز.



تقاطعنى الزبونة بغضب مبهم غير مبرر:

- إنت ظلمت نفسك فى العلاقة دى من الأول.. استمرارك فيها باستماته بيستفزنى أنا شخصيًّا! استمرارك معناه إن فى أمل تتغير، وهى مستحيل كانت تتغير، لا على إيدك وعلى إيد حد تانى. ولو فرضنا إنك عايز تستمر على أساس كلامك ده هى من ناحيتها بقى المفروض اللى بيصدق إنسان وبيثق فيه وبيديه كل الدعم المعنوى الممكن بيصبر. الصح اللى كان لازم يحصل إنها كانت تعذرك وتقدرك أكتر من كده حتى لو شاكه فيك.. والشك راكبها من ساسها لراسها فى الأسوأ منك بمراحل، ويمكن كمان فى اللى ملوش

لا حل ولا علاج ومؤذى.. وبردو مش جايز سابتك علشان تنجيك من الموقف اللى حطك فيه أهلها مثلًا وهترجعلك لما تبقى واقف على رجليك صح! البنت دى حبتك، ولما سابتك كانت حباك بس كانت عايزاك أحسن. متظلمش أختها كمان كل اخت بتتمنى تشوف أختها مبسوطه، متظلمش نفسك، متظلمهاش، متظلمش حد فى العلاقه دى لإن كل حاجه فى الاول وفى الآخر نصيب. افهم بقى.

أقول ساخرًا:

ـ مين قالك إنها كانت تستاهل اللى عملتو علشانها؟! ربع اللى ادتهولها لو اديتو لغيرها بس كان..

قاطعنا صوت رجل آتٍ من الخارج. فى أواخر الأربعين من العمر على ما يبدو.. يضع الهاتف على أذنيه ويدمع، يتطلع إلى المحل من الخارج كأنما يبحث عن ضالته.. كان تائهًا على ما يبدو.. والسبب الهاتف الموضوع على أذنيه. يمط شفتيه فى ألم، أشفقنا عليه أنا وهى ولم ننطق ونحن نراقبه وهو يسير الهوينى داخل المحل، كان من الذين تظن أنهم لم يغادروا القرن التاسع عشر الأغبر السحيق بردائه الرث، جاكت ممسوح باللون البنى الداكن الذى يتضح من معالمه أنه ورثه من الأجداد لا يتناسب أبدًا مع موضة ١٩٥٠ أو أقل. بدا مسافرًا عبر الزمان من الماضى للمستقبل الحاضر، فياقة القميص الداخلى تبصق من عنقه، وتسيطر على الهيئة الخارجية، حتى لتظن أن أحدهم قام بتهديده فجذبه منها، موبايل أريكسون القديم (أبيض وأسود). وعيناه تبكى على تضحية ما! لا أدرى عنها شيئًا ولا أعتنى. يتأمل بكل اهتمام الأدوات المنزلية المطلوبة، رغم الحزن الذى أفقد يده الاتزان، مسيطرًا على يديه المرتعشة وكأنه يخشى من يتحدث معه.

يقول بكل أسى:

ـ عايزه حاجه تانيه؟

يستمع بكل إمعان، وما إن رأى كرسيًّا فارغًا لم يستأذن، وجلس كالجثة فوقه وهو يضع يده اليسرى الفارغة على رأسى فى تحسر.. فقال:

يا بنتى إنتى أخدتى كل حاجه فى الشقه.

تتسع عيناه فجأة فى انصعاق:

ـ أنا؟!.. أنا يا بنتى حيوان؟!.. بتقولى لابوكى حيوان؟!

تندهش الزبونة الجالسة جوارى، وننظر إلى بعضنا البعض فى دهشة واستنكار ونحن نراقب حديث الرجل رغمًا عنا بكل اهتمام.. كيف تسب الابنة أباها بتلك الطريقة الفجة؟! كيف؟! يبدو عليه من ملامحه الطيبة منقطعة النظير. من جيل قديم، دفنه بؤس ذلك الزمن وأهانه. يرسم على شفتيه ابتسامة حسرة معروفة:

ـ عايزين فلوس تانى؟.. ماشى يا بنتى.. خدوا كل حاجه.. يا بنتى التزمى الأخلاق لما تتكلمى مع أبوكى.. أنا أبوكى يا بنتى ميصحش تتعاملى معايا بالشكل ده.. ماشى يا بنتى؟ تعالى خدى الأنتريه.. إيه بتقولى إيه كمان؟.. أختك الصغيرة عايزه التليفزيون الـ (فلات).. تيجى ماشى خليها تيجى تاخدو.

الملاعين!!.. كيف يفعلونها ويقتلعون كل ما يملك؟!.. لقد أخذوا كل شىء من ذلك المسكين.

الذى يبدو منكسرًا ذليلًا أمام سلالته النمرودة. من وراءهم؟! كيف يعيش معهن؟! كيف انكسر كبرياء ذلك الأب وانطوى أسفل أقدام أبنائه. نستمع إليه من جديد وهو يمسح دمعة أخرى فرت عبر مقلتيه:

ـ كده إنتوا سيبتولى إيه من البيت؟.. يدوبك السرير بس يا بنتى اللى هنام عليه.

خلف من استجمعت كل قواها بنيته وكسرت أضلعه تكسيرًا. هناك شخص مجهول خلف تلك الأمور، من علم الفراسة كما تعلمون وقراءة تحركات الجسد، درست تفاصيل وتحرك ملامح وجهه البائس، التى تجمع ما بين تذكر الماضى الأليم والخزى والتفكير بمستقبله وحده، يفكر بأنينة غير مبررة لا يتقبلها هو شخصيًّا لم يعتد عليها مطلقًا، ربما كل ما قاله يدل على الإخلاص التام وإنكاره لذاته، تفكير الأنانية جاء متأخرًا بالفعل.. ولكن ذلك يعد كفيلًا بأن يشعر بالراحة لثوانٍ، ينظر إلى الأمام تعبيرًا عن الخيال الذى يرسمه عقله فى تلك اللحظات ومصيره المنتظر.

يقول بشحتفة مشابهة لشحتفة طفل فى السابعة من عمره:

ـ إقفلى إقفلى يا بنتى يا خسارة تربيتى فيكى وفى اختك!!.

يردد كمن يحدث نفسه.. يحدثنا بطريقة غير مباشرة بعدما استمعنا صراحته أن ابنته قد سبته.. فأحب أن يعطينى أجوبة على ما حدث منذ دقائق:

ـ حبيت واحده.. وحاربت أهلى علشانها.. من ٢٠ سنه.. رفضت الخلفه بحجة إن مستوانا مش سامح باحتضان فرد تالت فى البيت.. أصريت وهى أصرت.. قالت مفيش حاجه بتيجى بالعافيه.. قلتلها ده حقى إن أخلف منك.. عايز أجيب حاجه منك يا حبيبتى.. وافقت.. ولما وافقت إتمردت وخلت حياتى جحيم.. كنت مستحمل. وقلتلها هفضل استحملك لحد ما موت.. وفى الآخر!..

يصمت، يقاوم مشاعر متضاربة، ينظر فى جميع الجهات البصرية، يسترجع ذكريات، يتأمل المستقبل، يتعمق فى حاضره، يتدبر أمره وأخيرًا يستسلم!

يكمل وكأنه يجلس فى الطائرة وحيدًا بعد قرار المغادرة الأبدية مفارقًا الجزر ويرحل بعيدًا:

ـ الواحد مش عارف يشكى لمين ويقول إيه!.. مراتى تعمل معايا أنا كده؟!. بعد العشره والعيش والملح؟!.. بعد حبنا الكبير؟!.. كنا احنا الاتنين الكل بيتحاكى بينا .. الكل كان بيحسد حبنا وكأنه حاجه نادرة الوجود يا بنى!.

بالرغم من أن أحدًا لم يتجرأ ويتساءل عما به.. إلا أننا تركناه ليفرغ ما فى جعبته من حسرة وشكوى عصف السنين بأوردته وذكرياته.. كأنه ولد بالأمس.. واشتكى اليوم من وجع الأيام، فيلوم أبويه كل لحظة، ويتساءل فى صمت: لماذا أتيا به إلى تلك الحياة؟!.. وإلى ذلك الوجع الأبدى الذى وصمه بمولد ابنتيه!.. من ذريته.. فينظر إلى لا شىء، ويكمل من جديد:

ـ كنت بدى وهى مكنتش فاهمه ازاى ترد أو تدى.. مكنتش تعرف إيه هو معنى الحب.. الحب اللى وصلنى إن بناتى الاتنين يهزأونى ويتجمعوا عليا بالضرب وياخدوا منى العفش والمطبخ وكل ما أملك.. كل حاجه دفعت فيها مليم كان من عرقى وشقايا.. ويروحوا فى الآخر لحماتى.

لا بد أن أقول جملة أواسى بها ذلك المسكين فى تلك اللحظات، وبلكنة مقبولة؛ كى يعلم أننا نقدر موقفه ولكن ما بيد حيلة:

ـ معلش ربنا يعوض عليك.

ينظر إلىَّ بكل دهشة، وتتلون ملامح الغضب على وجهه.. وكأننى صفعته يقول:

ـ معلش فى إيه ولّا فى إيه ولّا فى إيه؟

تنظر الفتاة التى تناسيت وجودها تمامًا بكل توتر وتعاطف لم تنطق وهى تراقب المشهد..

يستمر فى سرد ألحان الوفاء المغدور ويقول:

- الحب ده أكبر كدبه فى التاريخ يا بنى.. كنت خايب لما سمعت كلام أهلها لما قالولى تتعدل على إديك.. هههههههه.. تتعدل!.. كان حال البلد اتعدل!!.

لم تمر بضع دقائق وتدخل السيدة (ريموندة) إحدى زبائن المحال المعتادين.. حاملة معها طفلًا من ذريتها، مسكينًا، هادئة نظراته، تحمل تساؤلًا دائمًا.. يخشى الاقتراب من الأشياء حتى لا تصعقه أمه بكابل الكهرباء العارى أمام البشر.. ريموندة سيدة تحمل عينًا دائرية متوسطة، مزينة باللون الأسود.. وجه دائرى، وأنف مستقيم، وفم دقيق، يبدو عليها معالم الرضا والاكتفاء دائمًا.. وكأنها خالة.. عمة.. الشىء الملفت أنها كاشفة الشعر، صاحبة خصلات ضعيفة، استمعت إلى الرجل المتحدث.. آه كانت بالخارج ولم نلاحظ وجودها، فقد كنا منتبهين وبشدة لحديث الرجل.. وإلا لما قالت:

- معلش يا أستاذ مش أى ست تتحب تتجوزها.. إنت اخترت غلط جايز ربنا بيختبرك وشايلك الأحسن فى الجنه مش فى الدنيا.

ينظر إليها الرجل متسائلًا باستنكار:

- بعد إيه يا بنتى؟! بعد ما أخدوا كل حاجه؟! مسابوليش حتى السرير اللى بنام عليه أخدوه هو كمان وبقيت أنام على الأرض!.

انسحب من الموقع والأحداث الجارية كى تعاودنى ذكرى.. فلاش باك للماضى القريب.

أقول:

ـ إنتى أنانيه ومبتشفيش غير نفسك وبس!.

تقول بمنتهى التلقائية:

ـ كلامك صح!.. علشان كده مينفعش نستمر مع بعض.

ـ إنتى بتقولى إيه؟! بعد كل اللى عملته علشانك.. إنتى كنتى متجرؤيش تجيبى سيرة الفراق قدامى.. دلوقتى بقى لبانه فى بوقك بتقوليها كل مرة نتخانق.

الآن تتغير نبرتها بنبرة كم كنت أمقتها بالماضى! نبرة أنا أبيعك مثلما أبيع علبة طلاء الأظافر الخاصة بى بعدما فرغت وأصبحت بلا ثمن يذكر، أستغنى عن خدماتك بعدما وفيت غرضك، وغيرت مفهوم حياتى الكئيبة الخالية من الرفقة والرفيق، وجعلتها أفضل وأدخلت النور مرة أخرى داخل حجرتى المظلمة. حسنًا فعلت، أنت طيب ومخلص، والحياة لا تحتاج لمن يحملون قلوبًا نقية، لا بد أن تتلوث يومًا ما. اليوم أمتلك الدفة، وأقود بنفسى مسار حياتى وحدى، لا أحتاج لحب! أنا لا أعلم ما هو الحب من الاساس! إنها الحياة يا حبيبى، عبارة عن مسرح كبير، يؤدى كل منا دوره بإتقان حتى المشهد الاخير! وبعدها يذهب الجميع. المسرحية لا بد لها من نهاية، وفى يدى الخاتمة، أرجو أن تكون قضيت وقتًا ممتعًا. قالت:

ـ علشان زهقت وقرفت.. هفضل لحد إمتى أزق فيك.. حذرتك ألف مره وقلتلك أنا قربت أزهق.. طاقتى بتستنفد دلعت وطبطت كتير ومفيش فايده ولا نتيجه..

ـ إنتى شايفه كدة؟.

ـ آه شايفه كده. معتز.. إنت كدبت عليا وفوت بمزاجى.. ها بمزاجى.. كدبت عليا كام مرة؟

أيتها المريضة الحيزبون لم يتعب سواى من تلك العلاقة. إذا كان هناك من استنفد فهو أنا.. إذا كان محب فهو أنا أيضًا!. إذا كان هناك شخص ضحى فهو أنا أيضًا. أوقعته الظروف مع فتاة، تأخذ ولا تعطى، تلوم، وتسخر من الاعتذار، محطمة الآمال، مدمرة لكل حلم، لا تثنى على أحد، لا تحب أحدًا.. لا أحد، لا أحد!!. أنانية ولا ترى سوى نفسها فقط. فى تلك اللحظات أصمت، لا بد أن أصمت، وأدعها تفرغ قارورتها الصدئة من الأوساخ، وما تحويه داخل ضميرها المتهالك، تريدين تركى؟ فليكن، أعود للاستماع من جديد لها، ونبرتها التى تعلو رويدًا رويدًا:

ـ فين الشغلانه التانيه؟!.. مش قلتلى فى شغلانه تانيه؟ بقالى ٣ شهور مستنيه تقولى أنا اشتغلت ومفيش.

تريدين تركى؟ فليكن.

ـ معتز.. أنا خلاص بح كده.. أنا هكلم بابا يديك فلوس الشقه أو اتصرفو انتو الاتنين كما يحلو ليكم.. بس أنا خلاص مبقتش عايزه أستمر فى العلاقه دى.

شخص آخر..

أتحدث إلى شخص آخر، لا يرى سوى كبريائه وجمهوريته وأسطورته الشخصية التى حطمها شخص مثلى!!

كيف فعلتها وأغرقتنى وتركتنى بلا مرسى؟!

قلت أخيرًا:

ـ أنا هكلم ابوكى يدينى فلوس الشقه اللى دفعته فيها بس.. أو يشوف ليها بيعه دلوقتى تمنها أغلى يعنى هيكسب وأنا هكسب فيها.

ـ إعمل اللى يحلالك!.

لا بد أنها تمزح! كل ما يحدث ليس حقيقيًّا. سوف أذهب كى أقيس مدى مصداقية حديثها مع أبيها. ليس من السهل مطلقًا دهس ذكرانا، دهس حبى، دهس مشاعرى، تحطيم أضلعى، تدمير أحلامى بكلمات قليلة بسيطة!! لا تحمل منذ أن وطأت قدماى داخل محيط منزلها ونظرات أبيها النارية لا تتركنى! وعندما أطلقت قنبلة أخرى قائلًا:

عايزين نبيع الشقه يا حاج.. حضرتك دافع النصف وشاكر ليك جدًّا مساعدتك إنك جبتها جمب بيتكم.. بس أنا عندى اقتراح نشوف ليها بيعه و...

يقاطعنى بغضب صارم:

ـ إنت عايز تتاجر عليا؟.

ـ بنتك بتقولى مش عايزاك وأنا هاخد الفلوس دى وهفتح بيها مشروع جمب شغلى.. كده أبقى اشتغلت فى وظيفة تانيه جوار الأولى.

ـ بنتى عيزاك أحسن الناس.

ـ أنا مش شايف كده.. كلمها واعرف منها.. قالت مش عيزاك.

قاطعنى بنفاد صبر:

ـ إنت دافع فى الشقة كام؟.. قولى اللى إنت دافعو وهدمهلك وفوقيهم بوسه.

لم أنطق، فهو لا يعلم ردة فعلها عندما تعلم أن شراكتى مع أبيها الوغد قد انفضت كما كانت تريد.. وهى ما كانت تريد وتردده على مسامعى مرارًا.. (أبى يفض الشراكة التى بينك وبينه بأى ثمن وعندها سوف نفعل ما يحلو لنا) بالتأكيد هى فعلت ذلك الأمر كى تصل الأمور إلى ذلك الوضع.. كى أفض شراكة المنزل، وبعدها سوف تعاود من جديد.

سوف أطلب المبلغ المدفوع، وعندما آتى إلى هنا، سوف آتى وأنا.. قاطعنى:

ـ تعالى الأسبوع اللى جاى يوم الحد أحضرلك فلوسك.. اللى دفعتها.

الصدمات تتوالى. يقسم المبلغ على أسابيع كما يريد.

يسلخ أذنى قولها:

ـ (مش عيزاك.. أنا زهقت.. يحصل دلوقتى بدل ما يحصل بعد الجواز.. وساعتها هكون مطلقة.. أنا بنجيك منى).

ـ معقوله وصلتى للدرجه دى؟؟!!.. أنا بحبك.

أعود إلى أرض الواقع وأنا أستمع لحديث السيدة ريموندة وهى توجه حديثها إلى ذلك الرجل، تنظر إليه نظرة متفهمة، ثم قالت:

ـ الجواز حاجه والحب حاجه تانيه خالص.. الحب ملوش وجود.. العشره هى كل حاجه.. صدقنى بتكتشف من خلاله خبايا الإنسان اللى هتعيش معاه العمر كله.. وليك إنك تقبل أو ترفض وتستمر وده عندكم فى الإسلام.. أنا مثلًا مسيحية من الطائفة الأرثوذوكسيه. مفيش عندنا خيار للطلاق، ولو كان فيه كان زمنا اطلقنا عادى من زمان.. لكن أنا مقتنعه

إنى لازم أكمل علشان فى حكمه ربنا خلقنى علشانها.. جايز علشان أربى ولادى ودى رساله.. علشان أراعى زوجى ودى رساله.. علشان أحافظ على بيتى دى رساله.. إنى أشتغل دى رساله.

ينظر إليها متفهمًا، ونحن أيضًا، نحيى شجاعة تلك المرأة الجسور التى تدرك مغزى وجودها، ونحن نحاول اكتشاف أنفسنا..

نحيى فيها الرضا، والصبر، والسعى.. تكمل ونستمع:

ـ رغم إن أى واحد مكانى كان ممكن تخون وتبص بره زى ما فيه ناس كتيره بتعمل.. لكن أنا ارتضيت بنصيبى وبسعى فى تطوير حياتى.. أنا رومانسيه حالمه.. بكتب شعر.. بحب كاظم وعاصى الحلانى، ووائل كافورى.. وجوزى شعبى مستنى الزهر يلعب معاه.. مشاعره جافه.. لكن أنا سستمت حياتى معاه، وبحاول وبحلم إنى أعيش معاه أحلى عيشه ومبيحصلش، لكن هفضل أحلم.. لما نكمل قسط التلاجه.. وقسط العربيه.. ودروس العيال..

والعلاوه الجديده علشان ندخلها فى السرير الجديد بتاع الولاد.. عايزين نجيب ستاير جديده بدل اللى اتقطعوا.. وقسط السجاجيد.. وقسط البوتجاز أبو ست عيون.. لم نسدد فلوس دروس الأولاد الاتنين.. وبعد ما نعمل كل ده ونسد اللى علينا ساعتها هنعيش أحلى عيشه.. ونسافر نصيف.

ننظر ثلاثتنا إليها وكأنها ألقت خطبة وتنتظر أن نصفق لها بكل حرارة.. ولا بأس ببعض الصفافير.. وهنا بدر من الرجل كلمة حسبناها الأخيرة لأنه وقف واتجه للخارج وهو ينظر إليها بكل فخر قائلًا:

ـ جوزك محظوظ يا بنتى.. إنتى جدعه.. والجواز للجدعان.

ودلفت هى الأخرى بعدما أعطتنا درسًا أثمن من شرائها بعض الأشياء

من محلى العريض. أنظر الى الزبونة الدائمة وأتساءل من جديد:

ـ كنا بنقول إيه؟.

تنظر إلى الشارع كأنما تتأكد من عدم دخول أحدهم ومقاطعة حديثها:

ـ هو بعد اللى سمعته محتاج تسمع حاجه تانيه؟!

أنظر إليها فى صمت جامد الملامح.. أطلق لخيالى مرارًا وتكرارًا العنان لتذكر تجاوزها المتكرر.. تبًّا لها!

تقول وهى ترمقنى بحذر، ثم قالت بحسم كالتى تنوى صفعى بحديثها كما فعلت سابقا:

ـ الحب مش رهان.. كل واحد هيرمى ورقه ومستنى يكسب.

ـ الحب يا معتز عطاء.

ـ الحب يامعتز (وهى تلوح بيدها كانها تصفه) كان فى بداية علاقتكم.. جميل وحلم ومفيش أحلى من كده.. المهم الاستمراريه.. المهم تستحملوا بعض على الحلوه والمره.. لو فى طرف مش قادر يستحمل التانى هتفشل.. ميغركش البدايه.. البدايات دايمًا مليانه بالأحلام ودايمًا خداعه!.. مترهنش على البدايات.. الرهان اللى بجد على النهايات.. لاحظ حبيبك ساعة غضبه بيعمل إيه مع الناس.. نفس اللى بيعمله معاهم هييجى الدور عليك ويعملها معاك بنفس الأسلوب ونفس الترتيب.. هيستناك تضعف.. وهيخلى موقفك ضعيف زى ما عمل مع حبايبو وقرايبو ويقضى عليك.

لما تختار حد اختار الأصيل واللى يعيش معاك على الحلوه والمره.. اللى ينسالك ويعاتبك بهدوء مش قدام الناس.. اختار اللى يحب يكون معاك.. مش مضطر يكون معاك.. اختار اللى يكافح معاك بنفس راضيه.. دى

حياه كامله. لو محتاج لوجود حد فى حياتك.. ما تحبش!. لو عايز تحب.. ما تحبش!. لو حاسس إن سنك كبر وعندك احتياج تحس بالأبوه.. ما تحبش!. لو قدامك حد ينفع.. ما تحبش!.

لإنك بكل بساطه هتظلمو معاك.. هتضطر تحبه لإنك مش لاقى غيره.. وساعتها هتعيد اللى عملتو معاك.. هتحب لإنك مش لاقى غيره.. وهتسيبو مكسور مجروح كل اللى بيفكر فيه إنو ينتقم منك ويدعى عليك ليل ونهار. وده غلط. متحبش طول ما جرحك مفتوح.. واللى هييجى هيعمق الجرح.. مش هيعالج والجرح فى القلب مفتوح لسه اصبر يخف وتنساها.. وساعتها حب وعيش حياتك. ما تستناش الحب.. الحب هو اللى هسيتناك.. هيجيلك لوحده فى زمان ومكان مش هتتوقعه.

الآن أشعر بعدم وجودها أمامى، أبتعد بعيدًا عن المكان والزمان، لا أبالى بتجارب الآخرين، لطالما كنا نقول ونردد: (حبنا حاله خاصه). إنها تعيش داخل قلبى. كيف نفترق؟! لقدسخرنا معًا من الفراق!!. قالت آسيا:

ـ معتز.. هو انت ممكن تبعد عنى؟ إنت لو سبتنى أموت..

أقول:

ـ محدش غيرك ساندنى بعد وفاة بابا وانتى عارفه.. محدش طبطب عليا وقت ما احتجت طبطبة غيرك.. محدش شجعنى على النجاح والبداية من جديد غيرك.. محدش طمنى بوجوده ودعمه ووقف جمبى وقفة بنت بميت راجل.. محدش قوانى على غدر الناس غيرك.. محدش هحبه غيرك.. أنا بموت فيكى.. لو بعيد الشر جرالك حاجه مش هحب حد غيرك...

تقول بحنان:

ـ مفيش راجل مبيقعدش من غير جواز .. متسرحش بيا!.

- إنتى شايفه إنى ممكن أحب غيرك؟!
- بصراحة لأ!.
- نفسى بس ربنا يدينى طولة العمر علشان أسعدك وبس.
- يا حبيبى أنا بموت فيك أصلًا.. بس مقلتليش بردو ممكن تبعد عنى؟.
- هههههههه.

* * *

جوار الزبونة.....

لا أنظر إليها بحزن متأثرًا.. فقط أنا منصت مستمع كعادتى.. أمط شفتى:

- أقولها إيه؟ أفهمها ازاى؟.. اللى عملتو معايا مش شويه..

تبتسم فى سخرية مستنكرة قائلة:

- متقولهاش أى حاجه.. اللى ودعك مش هيستنى يسمع كلام.. إنسى وفكر بس فى مستقبلك.. ضيعت منك حاجات كتيره بوجودها فى حياتك.. أنا مش عايزه أصدمك وأقولك حاجه توجعك أكتر ما انت موجوع.
- هههههههه قولى بجملة الوجع.

تنظر إلى جميع القطع الموجودة داخل المحل التجارى.. متحاشية النظر نحوى.. قالت:

- كانت بتنسى بيك حد.. حد واجعها وبتردلك الوجع اللى اتوجعته.. أو كانت بترضى غرورها معاك.. وحضرتك تكرمت وادتهولها ورجعلتها ثقتها فى نفسها من جديد.. ممكن كمان بعدك تخش فى علاقه جديده وهى واثقه فى نفسها.
- مستحيل!!
- مستحيل ليه هى مش بنى آدمة؟!
- مستحيل أتخيلها ماسكة إيد حد غيرى! بتبص بحب لحد غيرى!

بتغير على حد غيرى! مش ممكن! مش قادر اتخيل! أنا حتى بعدها مقدرتش أعملها أو أتخيلها.

ـ هى مش حسستك إنها لسه بتحبك آخر لقاء بينكوا؟ لازم تتأكد إنها كانت بتمثل عليك.. عايزاك تفضل كده فاكرها بتحبك ومستنياك.. ده حب الذات.. وهى حبت نفسها أكتر ما حبتك.. ربطتك بحبل علشان تشوف فرصه أحسن.. فرصه تكون قادرة تعيشها فى المستوى اللى عايزاه وبتحبه.. فرصه تريحها وفرصه ورا فرصه.. ليه لأ بعد ما رجعتلها ثقتها فى نفسها من جديد.. وفى الآخر لو مجتش الفرصه المناسبه الإستبن موجود. اللى بيعشقها وبيحبها ومستنيها بس تشاور علشان ترجع.. أديه لسه قاعد مستنيها.. ضمنت وجودك.. إنت مجرد استبن.. إنت فاهم؟!

أنظر إليها بكل غضب وأود صفعها على جرأتها:

ـ أنا مش استبن وخلى بالك من ألفاظك معايا.. إنتى عديتى حدودك.

تدرك خطأها وتجاوزها الوقح، بعدما أحنيت ظهرى ممسكًا بيدى كالأطفال أمامها.

تدرك مدى جرحى أو لا تدرك، فلا يعنينى. أسمعها تقول هامسة:

ـ (لسه بتحبها؟!).

* * *

تقول آسيا:

ـ هو يعنى إيه حب؟!.

ـ إنك تبقى معايا وحاسه بالأمان.. مكتفيه بيا.. متونسه بوجودى.. تقوينى وقت ضعفى.. تحبينى رغم عيوبى ورغم اللى أنا فيه.. تبقى راضيه وتحسنى فيا وأحس فيكى.. تخلينى كل حاجه فى حياتك.. أب.. أخ.. حبيب. ماتحطيش فروق ما بينا. أول ما يصيبك حاجه بعد الشر تكون

صابتنى قبل ما تصيبيك. لما تبقى جعانه وتاكلى كأنى كلت.. تبقى قادره تشيلى إسمى وتحافظى عليه.. وقت ما نحتاج بعض نلاقى بعض.. ومنقساش على بعض بالغياب.. إحنا الاتنين قادرين نحل كل مشاكلنا.. نتحدى الدنيا ونواجهها.. هتواجهنا صعاب كتير هنقدر نحلها طول ما احنا مع بعض (الاتحاد قوة) مفيش حد ييأس من التانى ولا يمل منه.. ومهما طال الزمن.. متخليش حد يجيب سيرتى بحاجه وحشه.. وأنا كمان.. الحب يعنى حياه.. الحب يعنى راحه.. إتوجدنا فى الدنيا علشان نريح بعض مش نتعب بعض.. لازم أستحملك وتستحملينى.. الحب صبر وقوه مش ضعف.. ماتتكيش على حبى ليكى فى إنك يوم تيجى عليا ولا أنا آجى عليكى.. مفيش ظروف تفرقنا.. لما كدبت عليكى فى أول تعارف ما بينا كنت شاب طايش ولما تأكدت من حبى ليكى مكدبتش تانى.. الحب يعنى صراحه وصدق فى المقام الأول.. خليكى صريحه معايا لو مقدار حبك نقص قولى علشان أعرف أنا قصرت فى إيه.. خليكى واثقه بوجودى وإنى مش هقدر أتخلى عنك مهما حصل.. وانتى كمان.. تسامحينى فى زلاتى وأسامحك.. أوعدك إنى أحبك طول عمرى وانتى كمان.. نكون ثنائى فى كل حاجه.. تشجعينى فى شغلى وأنا كمان أشجعك تكونى أحسن ست فى الدنيا.. ما تخفيش مش هغير من نجاحك لإنك روحى.. كأنى أنا اللى نجحت.. إحنا بنى آدمين.. وارد جدًّا البنى آدمين يغلطوا.. خلى عندك مفهوم التسامح دايمًا. سامحينى علشان أنا بنى آدم بغلط وهفضل أغلط، إحنا نزلنا الأرض عن طريق غلطه، أنا ماعشتش لحظات الحب غير معاكى، ولو فرقتنا الظروف مش هلاقى واحده أحبها زى ما حبيتك، آسيا إنتى غيرتينى وخلتينى شخص تانى، شخص الناس كلها بدأت تشاور عليه، وأول ما بيشاوروا بشاور عليكى وأقلهم أهى، أجمل بنت فى الدنيا، هى الرزق، هى حبيبتى اللى هعيش حياتى علشانها، هخليها دايمًا فخوره بيا.

تصمت ولا تجيب.. عزائى الوحيد أن يصلها مفهوم كلماتى.. فقالت أخيرًا:

ـ بس إنت كدبت عليا لما قولتلى إننا أد بعض فى السن، وطلعت أنا أكبر منك بشهرين بس. أنا ٣٠/ ١٠ وانت ١/ ١ ومش ممكن أسامحك على الكدبه دى..

لم تفهم شيئًا مما قلته!!.

أقول:

ـ وقتها مكنش مهم عندك سنى أد ما كان مهم عندك وجودى فى حياتك! لا سنى ولا شغلى ولا الجن الازرق.. ولا كانوا يعنولك أى شىء، كنتى حبانى زى ما انا.. ولما بدأتى تسأليني.. كأنك فى حلم وصحيتى منه، اتغيرتى عليا، وقتها حسيتى إنك زهقتى من اللعبه اللى معاكى، اللى كانت بتملى فراغك ومليا عليكى حياتك، اتهمتينى بالكدب، أنا كنت قايلك كل حاجه فى الأول مخبتش، بس مصره تكرهينى فيكى وتبعدينى عنك، الموضوع ده يفجر الشك ميت ألف مره فى قلبى، وسأل إيه اللى غيرك؟ مش مشكلتى إنك نسايه، ممكن تنسانى وتنسى حبى فى لحظه، أنا ما كدبتش، عمومًا كنت فاكر إنها حاجه مش مهمه!.

ـ يا سيدى مهمه عندى أنا، كل اللى مش مهم عندك مهم عندى!.

أضغط على فكى بألم ولا أجد كلمة تصلح لأدعها تكمل حديثها بغضب:

ـ أنا أكتر حاجه أكرهها فى حياتى هى الكدب!.

وختمت..

ـ (ماترجعليش أنا اللى هرجعلك).

أقول صارخًا فى وجه الزبونة مشيرًا إليها محذرًا فى جنون مريب:

ـ إنتى كدابه! مستحيل تكون بتنسى حد معايا! مستحيل تكون عملانى استبن!

مستحيل تكون مسكت إيدى بكل قوه وهى ناويه مترجعليش.. هى مش عايزه فرصه أحسن، هى مش عايزه حد غيرى، وبعدين مين اللى قالك؟!.. ها هى صح قولى هى اللى بعتاكى؟!.

ـ أنا عذراك بس علشان إنت مجروح وحاسه بيك. مش هقدر أقولك غير كلمه واحده، حاول تقص الشريط ده من حياتك علشان تعرف تعيش.. إوعى تنجح وتحققلها اللى هى عايزاه، إوعى تسرق روحك.. هى أنانيه قوى أنا متاكده إنها علقتك وراحت لغيرك على طول من غير حتى ما ضميرها يوجعها. اللى زى البنت دى ضميرها ميت وهتخلى حد يحبها ويتعلق بيها زيك بالظبط وترميه عادى ببساطه.. بس صدقنى وخليك واثق مش هتلاقى حد يحبها ولما تلاقى هتلاقى اللى يسرح بيها. لإنك الوحيد اللى دخلت جواها وتغلغلت وقبلت، رغم معرفتك إنك مجرد تسليه. واللى ميعرفهاش هيحس بأنانيتها وحبها لنفسها. عمرها ما هتحس بالسعاده!.

ـ بتجيبى الكلام ده منين؟ إنتى مين اللى بعتك؟ قوليلى مين اللى بعتك؟

ـ يوووووه أنا إيش عرفنى؟!.. أنا محدش باعتنى على فكره.. أنا جوا دماغك بس يا غبى.. أنا الصوت اللى رفضت تسمعه أول مره.. أنا اللى كنت بقولك لأ.. أنا اللى مشيت وراك رغم رفضى. أنا اللى طاوعتك علشان أرضى قلبك.. أنا اللى اتمرمطت.. أنا اللى ادهست.. أنا الصوت اللى رفضت تسمعه ولسه بترفض تسمعه.. أنا المنطق.. أنا العقل.. أنا اللى لسه عايز تدهسه وتعيش فى الماضى على أمل الرجوع المرفوض.. أنا الدرس.. أهم درس أخدته ولازم تتعلم منه.. إنت حبيت بجد وده مش عيب.. العيب إنك تستمر فى رغبة شىء من الأساس مينفعكش ولا لايق عليك.. أنا نفسك أنا فكره حتى دى مش قادر تستوعبها؟!

لم ألتفت إلى حديثها وأنا أقول ثائرًا:

ـ آةةةة شكلها هى اللى بعتاكى صح.. إيه اللى دخللللللللللللك أصلًا

فى حيااااااااااااتى.. إطلعى بره.. هاااااا إطلعوا كلكو برةةةةةة حياتى.

تراقبنى فى صمت..

إلى أن ذهبت روحها تسبح بنعومة كالسحابة البيضاء! والتصقت بجسد تلك الفتاة.

أتأملها فى ضجر من جديد، لولا أن يديها بدون خواتم لظننتها متزوجة، بعنقها الشامخ الطويل المهيب المكتفى الواثق، لتثق أنها برج العقرب. قالت بلا مبالاة وهى تتمسك بتحفة منزلية:

ـ هى بكام التحفة دى؟!.

تعيد تكرار جملتها بلكنة متسائلة متوترة:

ـ يا أستاذ بكام دى؟!.

انفض غبار السرحان الذى انتابنى لدقائق معدودة حسبتها ساعات وساعات، إلى أن اقتربت لمنتصف الليلة.

ألم يكن اتفاقًا؟!.

وهميًّا؟!.

أراقب تلك الزبونة من جديد. لم تكن لتحدثنى ولم أكن لأحدثها. كل ما فات سرده عقلى كبركان.. فيضان من الشجن والرغبة فى البوح. قالت متسائلة فى توتر:

ـ مالك فيك حاجه؟.

لم أجب وأنا أنظر إليها بكل لوعة وكأننى أتألم.. عسى ذلك أن يكون كفيلًا بتقديرها لصعوبة الموقف:

معدتى تعبانى سورى يا فندم!

قالت بلهفة طبيعية:

ـ يا خبر! طب عايزنى أجبلك حاجه؟.. بتاخد دوا أو حاجه سلامتك ألف سلامه؟!.

تلتف كلتا يدىَّ حول معدتى مدعيًا المرض قائلًا:

ـ شكرًا يا فندم والله مفيش حاجه أنا هبقى كويس!.

تتأملنى ثم تقول:

ـ طب إذا كان كده بكام دى؟

لا، تلك الزبونة ليست مثلهم! لا تجيد من هيئتها الفصال المعتاد!.

سوف أقول لها بكل صراحة كم يبلغ سعرها:

ـ بـ٥٠ بس.

تفتح فاها على مصراعيه قائلة:

ـ ٥٠ لا كتير عليها!. هما ٤٥ بس.

أطلق ضحكاتى عنوة وقدمت اعتذارى بحجة تذكرت موقفًا مضحكًا..

فكلهن متشابهات.

كلهن.

* * *

سوف أغلق المحل الآن، ولكن لا بد من مراجعة الحسابات القديمة..

صوت يأتى من الخارج: (فيه إيه.. جرى إيه يا باشا.. كنت بتزعق من شويه ولا حاجه). عم رشاد البواب.. ذلك العجوز الأسمرانى صاحب الشعر المجعد الأبيض والعيون الضيقة، ذو الوجه المستدير، يزينه شارب قصير يقتحم المحل فجأة قائلًا بهلع:

ـ لا كنت بضحك بس مفيش حاجه يا عم رشاد.

ـ بتضحك هههه طب ما تضحكنا معاك يا أستاذ معتز.

ـ هبقى احكيلك بكره.. معلش علشان عايز أقفل المحل واخلع.

يقول ببراءة:

ـ طب اعملك شاى؟ والنبى أنا بتكلم جاااااد..

ـ تسلم حبيب قلبى يا عم رشاد منحرمش.

يلتفت يمينًا ويسارًا وكأنه مراقب قبل أن يقترب.. يهمس بخفوت قائلًا:

ـ شفت البنت.. بنت منصور الساكن فى الدور السادس؟!.

ـ مالها دى؟.

ـ بيقولوا هتتجوز راجل كبير فى السن عندو ييجى ٤٠ سنه.

ـ طب ومالو!

ـ أهى البنت دى كانت عنيها عليك.. هى بصراحه بنت كده عشره على عشره (مشيرًا بعلامة اللايك الشهيرة) ومحترمه.

ـ ههههههههه نصيب يا عم رشاد كل الحاجات دى نصيب.

يميل برأسه فى حزن وكأنه يواسينى قائلًا:

ـ كنت بتكلم مين شويه يا باشا.. كنت سامعك بتكلم حد لما قعدت تضحك؟.

ذلك العجوز رغم أنه طيب القلب، لكنه يحمل تطفل قطيع كامل من الثعالب! حاولت قول شيء ما ولكنه خرج منى عنوة:

ـ بيبنات هفاااكارى.

ـ بتجول إيه باشا مسمعتش؟.

ـ بنات أفكارى يا عم رشاد.

يقول كالمشدوه:

ـ بنات! وبتجيب بنات هنا؟! ليه كده يا باشا ليه بس؟!.

ـ فى إيه يا عم رشاد إنت هتفضحنى؟!.

ذكرنى بمشهد دخول اللمبى لحارته القديمة وفضحه أهلها.. (إنت هربت يا لمبى؟).

ـ ليه بس يا سى الأستاذ بتجيب بنات؟!.. دنتا بتصلى وعارف ربنا!!.

قلت مستسلمًا لكل تلك الضجة:

ـ بكلم ضميرى.

وضع يده خلف ظهره كأنما يفكر فى الأمر:

ـ يعنى إيه يا أستاذ؟

ـ هو أنا مش شغال صحفى يا عم رشاد؟.. أكيد هتلاقينى بكلم نفسى بزعق الكلام ده يعنى.

يبتسم أخيرًا ويضحك قائلًا بلكنة الفلاح المصرى الأصيل:

ـ شاعر مجنون يعنى.. هههههههه شاعر بقى والكلام ده.

ـ هههههههه الله يسامحك هههههه ماشى يا عم رشاد.

وبعد ذهاب عم رشاد فى سعادة ضاربًا كفًّا على كف، ووعدنى بالغد بكوب من الشاى الساخن تعدل الدماغ، تعيد لى عقلى الذى ذهب، أمسكت ذلك الدفتر الكبير، أراجع مصروفات اليوم، تأتى آسيا من العدم لتجلس

جوارى! تنظر بكل حنان صادق تتلمس وجهى بنعومة..

تقترب من أذنى ثم تهمس:

ـ أنا فخوره بيك.. بحبك.

أبعد كفها الرقيقة التى كان يستند على كتفى.. وأبعدها بعيداً عنى.

تأتى ذكرى أخرى لاتفارقنى دومًا عبر تمسكها بقوة معصمى قائلة:

ـ عمرى ما هسيبك إنت فاهم.

تتمسك بيدى بقوة تلك المرة وهى تنظر مباشرة إلى عينىَّ قائلة:

ـ لو الدنيا كلها ضدك هفضل معاك.. أنا الوحيده اللى بحبك وهفضل أحبك لحد ما اموت.. لو عشت عمرين قد عمرك مش هتلاقى حد يحبك قد ما انا بحبك! فاهم كدة كويس ولّا لأ يا عبيط!

خيالها لا يفارقنى. يا للوقاحة! كيف تأتى بعد الفراق بمخيلتى؟! كيف وبعد كل ما حدث بعد الاستنفاد والتضحية والألم؟! وذلك الوجع الذى لا يفارقنى. أغلقت دفترى بصرامة، وأبعدتها بمخيلتى بقسوة تلك المرة، وهممت للرحيل، وأغلقت المحل بأسلوب آلى معتاد. تأخرت الساعة بالفعل حتى أوشكت على الثانية صباحًا. لمَ لا أسير بالجوار قليلًا؟! جوارى كان يسير النيل بهدوء صامت، حوله نباتات خضراء وأشجار، كأنها أقسمت على مشاركته الجمال، أشتم رائحة الهواء المندفع الممزوج برائحة النيل مع عطر الزهور والخضرة المتراصة، أسير ولا أكف عن النظر إلى النيل، أستند على أسواره، وأراقب جمال المشهد فى صمت. يفصل المشهد أصوات السيارات، هناك سيارات آتية ذات صخب واضح، زفة تأتى تقطع صمت الليل وسكينة

ومزاج النيل الراقى، أتطلع إليهم، هبط العريس وهو يصطحب زوجته بفساتنها الأبيض المتلألئ، عروس جميلة حقًّا، يزين وجهها فرحة صامتة وخجل مع القليل من الحياء. يتركان خلفهما أسرتيهما يتطلعون إليهما من خلف نوافذ السيارات الثلاث التى تراصت بعناية، يتمنون لهما السعادة على ما أظن. اقتربت منهما قليلًا دون أن يشعرا بوجودى، بعدما اقتربا نحو أسوار النيل، الرجل يقبل يدها قائلًا وعلى وجهه سعادة لا توصف:

- حبيبتى بحبك، أوعدك هعيش بس عشانك، إنتى بس، بموت فيكى.

تنظر إليه بنظرات فرحة خفية، تتمنى شخصًا غيره على ما أظن! علمت هذا وفطنت، أو هذا ما دار بخلدى فور قراءة لغة شفتيها التى كانت تقول:

- إنت بتحبنى أكتر منى؟.. خايفه أظلمك.

تريد البكاء، تنزع يدها بنعومة، التى كانت بحوزته، يتمسك بها من جديد دون أن يبالى. يبتسم قائلًا:

- هخليكى تحبينى.. متخفيش أنا راضى بحبك القليل، أنا مش مصدق إننا بقينا متجوزين، أهلك فرحانين إفرحى بقى متبقيش وحشه.

على ما يبدو على هذا التعس أنه استبدل امرأة كان يعشقها بأخرى سريعًا، وواضح أنها البديلة الأخرى؛ كى تغتاظ من أحبها وتركته بسهولة، وها هو يرد لها الصاع صاعين ويتمم زفافه بالبديلة فى سرعة ظنًّا بأنه (خير انتقام) أما تلك البديلة، العروس الجميلة، فكانت قد وقعت بالفعل فى حب آخر منذ سنين عدة، لا يمتلك المال الكافى ليفعلها وليتزوجها، حذرته مرارًا أن هناك عريسًا تقدم بالفعل لخطبتها وذووها موافقون. حذرته أن لا يضعها ما بين المطرقة والسندان. إنها تحبه حقًّا، والمسكين لا يقدر على إتمام حتى الخطبة لظروفه المادية المتعسرة، لا تستطيع الصمود أمام ذويها وإصراره

على زواجها، فأطلق سراحها. أنا أتكهن بالظروف المحيطة لذلك المشهد فقط، فأراقب من بعيد. تلتفت إلى ذويها الذين أخذوا بالهتاف لهما من السيارة، وتطلق النسوة الزغاريد قبل أن يهبط من السيارة أحد الصبية كاللص وبيده الكاميرا، ويقوم بالتقاط الصور التذكارية لهما، صورًا سوف تخلد للتاريخ، على جنبات النيل، أراقب الفتاة جيدًا، تبتسم لهم، وزين عينيها دمعة هبطت بنعومة وهى تلوح لهم، تجيد تمثيل دور الفتاة السعيدة ها هنا بذلك اليوم. وها هما يتقدمان لركوب السيارة، وانطلقت سيارتهما كالسهم.. لتحقيق حلم أحدهما، أشيح بوجهى بعيدًا فلا يعنينى... أسير وأذوب فى الليل.. وأسير.. ولا أفكر فى تشابه قصتها وقصتى.

سوف أمضى!.

حتى تيأس آسيا من مرافقة عقلى وتتركنى وشأنى. حتى أتخلص من ذلك الإدمان الذى يرافق حياتى! حتى بعد موت الحب الذى بيننا. يجب علىَّ أن أسير ولا أقف.

أسير..

وأسير.

حتى إذا طلع نهار جديد حيث لا توجد فيه آسيا.

وأدرك أن الماضى انتهى وأغلق دفتره الأخير.

تمت



حنين زائف

لنتحدث بوضوح الآن، أحببت وغصت في أعماق الحب حتى وصلت للقاع، قاع الحب وقاع الملل وقاع اليأس وقاع الألم، وقاع الحيرة. الخطأ خطأي منذ البداية. استمراري بكل استماتة في علاقة لم تكن تملك أدنى روابط واضحة .. فلأريكم القليل منها على الأقل الحبيبة (حبيبتي) والتي كانت تمتلك بالفعل الألف وجه، فقد كانت تنتمي لقبيلتين يشوبهم التناقض، فكانت تنتمي للطبقة الريفية البسيطة الطيبة الصادقة، وللعالم المتحضر الوقح بمختلف ألوانه فأجادت تمثيل دور المحبة أمامي، وأمام عائلتها الابنة البارة، وحينما تتحدث عن عائلتها تسبهم فردًا.. فردًا، وحينما تتحدث عني معهم، فلا تسمح لأحد منهم بالدفاع عني إطلاقًا عندما تلوم حبيبها الغائب، وعندما تحدثني عبر الهاتف أمامهم، تتحدث بكل حب مريب حتى تلفت الانتباه إليها وإلى حبها الوهمي المزعوم وسبيلها الوحيد لكسر الملل وقتل الفراغ، وعندما تتحدث سويًا عن العمل تتحدث عن تقصيرها الكامل نحوه، والفضل يعود إلى وغد مثلي الذي جعلها منشغلة في علاقة قائدها الـ(حب) وصل إلى درجة الارتباط الرسمي، ما أبشع أن تقع مع فتاة لا تدري لأي عالم تنتمي؟

فقد كانت لا تمدح أحدًا، لا تحب أحدًا (سواي)..!

حنينها زائف..

حبها زائف..

شغفها زائف..

وذلك لم يكن كل شيء.



محمود محمد إمام

كاتب روائي مصري، من مواليد القاهرة ١٩٨٧.. تخرج في كلية التجارة، جامعة عين شمس ..كان يعمل في مجال الفوركس .. سبق له النشر في معظم الجرائد المصرية، بداية من عام ٢٠٠٧ . صدرت روايته الأولى "المنكود" عام ٢٠١٤ ، ثم رواية "السرب" نهاية عام ٢٠١٤، ثم رواية "الجلسة التاسعة" عام ٢٠١٥

غلاف: أسامة علام


9 789776 578050

السراج
SERAJ